

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابع لطفي جمعة

القاهرة

قضايا إسلامية

قرطبة

في التاريخ الإسلامي
الدكتور جبهة هلال
ومحمد محمود صبح



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٦

بسم الرحمن الرحيم

مقدمة

يمكن الفتح الإسلامى لشبه جزيرة أيبيريا حدثا من الأحداث السياسية أو الحرية التي كانت دوما تظهر على مسرح الحياة فحسب « ولكننا نعتقد أن هذا الفتح قد تبلور في شكله إلى حدث ثقافى رائع ، أهلاً للإنسان لاكتشاف الكثير من المجهول التي لم يطررها عقله من قبل » ثم حفز هذا العقل على التنقيب والاختراع والابتكار ، وأفسح له الطريق ليسير بخطواته وأبحاثه واكتشافاته بما لم يتيسر للإنسان في يوم ما . . . ويشهد لذلك ما أنتجتة العبقريّة الإنسانية في إسبانيا الإسلامية تحت رعاية الخلفاء وأرباب الدولة في أعوام قليلة إذا قورنت بعمر التاريخ المديد .

وقد حاولنا جهدنا في هذا الكتاب الذى تقدمه إلى المكتبة العربية أن نفصح عن بعض تلك الثمرات الجيدة ممثلاً ذلك

في النواحي الحضارية : الثقافية والفنية والفلسفية واللغوية
والعمرانية .

وقد منا فيه بعض الشخصيات الإسلامية الأندلسية التي لعبت
أدوارا رئيسية في إنعاش الحركة الثقافية وتخليدها . . . هؤلاء
الأشخاص الذين قدموا خلاصة الفكر للإنسانية عامة ، وتعلمذ
عليهم مباشرة أو على مدارسهم الكثير من شببية النصارى سواء
أكانوا من الدولة النصرانية الإسبانية أم غيرها من دول أوربا
التي كانت حتى ذلك العهد تنام نوما عميقا في ظلمات الجهالة ،
ولم يوقظها من نومها إلا صوت الحضارة الإسلامية وإنتاج العقل
الإسلامى

هذا الإنتاج الذى أحدث الحركة الانفعالية الحضارية
الإنسانية وعمت ربوعا كثيرة كان قد أصابها القحط والجهل
ولكنها تطورت بفضل العبقرية الإسلامية وما قدمته لها من
غذاء ثقافى وحضارى رغم أنها تبدو للناظرين له خلال الحجب
الكثيفة وكأنها الفردهوس المفقود وذلك للغواشى التي لحقتها
في العصور التالية .

ولم نعمل كثيرا في هذا الكتاب على الشخصيات السياسية

إلا بالقدر الذى تستبين به عظمة دولة الأندلس ومكاتها
بين الدول المعاصرة لها ، أما الأساس فهو بسط الفكرة الثقافية
والفنية التى هى بغية هذا الكتاب .

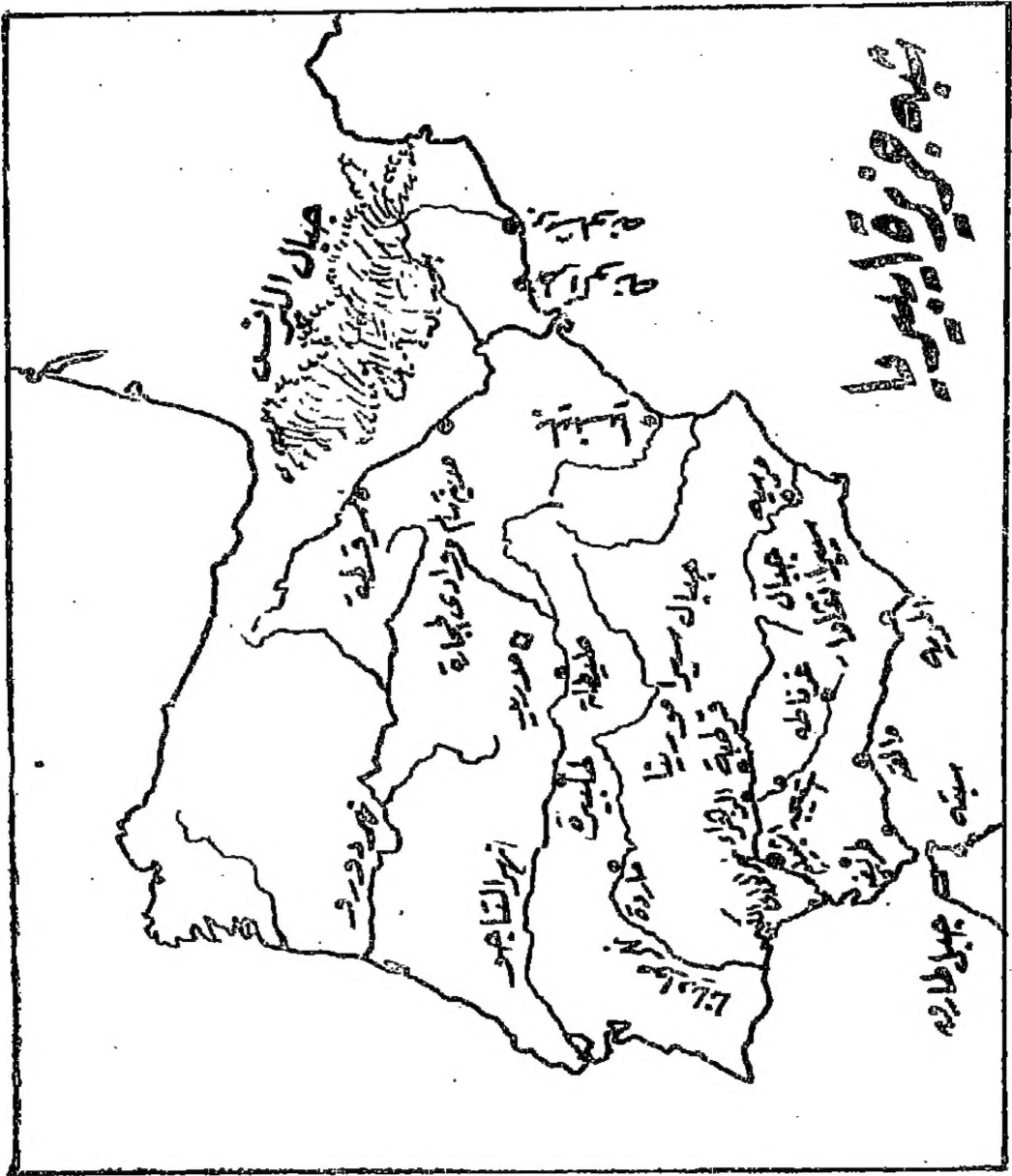
وإننا نرجو بهذا الجهد المتواضع أن نكون قد وفقنا
فى الإسهام مع من تناولوا هذا الحقل بالدراسة ليعرف القارىء
مدى ما قدمه العرب من آثار طيبة فى بناء الحضارة الإنسانية .
والله المستعان

دكتور

عبود هلال

محمد محمود صبح

آب و هوا و بارش





كان ظهور النبي محمد - « صلى الله عليه وسلم » - بمثابة البعث الجديد للإنسانية ، آمنت به جماعة من الناس فحملت عنه الأمانة ، وبلغت بعده الرسالة ، وكان للنفحة النبوية الطاهرة ؛ التي وهبها أمته أثرها البالغ ، في تطوير الأوضاع الاجتماعية ، وتغيير الموازين الدولية .

وراح العالم وقتها - في الشرق والغرب - يفكر ويقدر ، ثم يطول به التفكير والتقدير يفكر في محمد الذي انبثق نوره من الصحراء ، ويتحدث عن هذا الرجل صاحب المعجزات ، الذي ملأ بشخصه ، والقرآن الذي جاء به ، مع الناس وبصرهم ، وتجاوز الحديث عنه حدود الصحراء ، وتخطت شهرته البحار والآفاق .

تذكر الروايات ، ويتحدث الثقات : أن هرقل الروم سأل أبا سفيان بن حرب - شيخ قريش وخطيبها ، وأول مناهض لدعوة محمد عليه الصلاة والسلام - عن ذات محمد وأخلاقه ودعوته ، فأجاب أبو سفيان عن الأولى بقوله : إنه من أكرم أرومة في العرب ، وعن الثانية بأنه جماع الأخلاق الكريمة ويدعى

بين الناس بالصادق الأمين ، وأجاب عن الثالثة بأن مجدا يدعو
إلى عبادة الله وحده ، ويأمر الناس بالصدق والعفاف .
وهنا يتأمل هرقل عاقل الروم في مقالة شيخ قريش ،
ثم يعلن على الملأ من قومه : لئن كان ما تقوله حقا يا أبا سفيان ،
فسيملك محمد موضع قدمي هاتين ثم يضيف قائلا :
ولو كنت عنده لفسلت عن قدميه .

لقد أيقن عظيم الروم بشاقب فكره أن مجدا صاحب فكرة
ثورية جديدة ، وأنه ما جاء إلا ليعلن الحرب في غير هوادة
على السادة للتجبرين الطفافة - ويدعو إلى التحرر من ربقة
الأوثان في شتى صورها ، وتباين أشكالها

وإن رجلا هذا شأنه لجدير بأن يملك موضع قدمي هرقل ،
وما هو أبعد من موضع قدمي هرقل ، وصدقت نبوءة الرجل
وصح حدسه ، وخرجت القوة المؤمنة الجديدة التي اختزتها
الصحراء عبر الأجيال تحمل راية الله سبحانه وتعالى ، وتبلغ
عن أمره ، فتتابع انتصاراتها الباهرة حتى وصلت شرقا
إلى أقصى أقاصى الشرق ، ووصلت غربا إلى أقصى أقاصى الغرب .
ولم يشهد التاريخ في أحقابها المديدة انتصارات مظفرة مثلما
شهد انتصارات الفتوح الإسلامية .

فهذا عمرو بن العاص القائد العربى يستأذن الخليفة الثانى
عمر بن الخطاب فى فتح مصر فيأذن له وينقض عليها عمرو بجيش
لم تهزم له راية من قبل ، ثم يقطعها من جسم الدولة الرومانية
العتيقة ليدخلها ضمن حدود الدولة الفتية الجديدة .

ثم تمتد هذه الموجة - موجة النصر - إلى الساحل الإفريقى
حتى تبلغ مداها وهناك عند ساحل بحر الظلمات^(١) يقتحم عقبة
ابن نافع الفهرى بفرسه لجاج هذا البحر ويشهد الله نفسه أنه
لو كان يعلم أن وراء هذه الظلمات أرضا لما وقف شئء دون
غايته وأماتته .

ومرت الأيام تباعا ، وانقضت سراعا وآلت الخلافة الإسلامية
إلى الوليد بن عبد الملك وبلغت الجيوش الإسلامية حينذاك
أطراف العالم فبينما كانت هذه الجيوش تدق أبواب القارة
الهندية فى الشرق ، كان المسلمون فى الغرب يتأملون شطآن
أوروبا ويرنون بأبصارهم إلى ما وراء مضيق هرقل^(٢) ، ثم تمتد
عيونهم إلى الولايات الإسبانية الزاهية المشرقة ؛ تلك الولايات

(١) هو ما يعرف بالمحيط الأطلسى الآن .

(٢) هو ما يعرف بمضيق جبل طارق الآن .

التي أبدع في وصفها مؤرخ الأندلس - غير مدافع - لسان الدين
ابن الخطيب بقوله :

تمتاز أرض الأندلس بلذات الأقوات ، وفراة الحيوان ،
ودرور الفاكة وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ،
وشرف الأنية ، وكثرة السلاح وصحة الهواء ، وايضا ألوان
الإنسان ، ونبل الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ،
وتفوذ الإدراك ، وإحكام التمدن ، بما حرمة الكثير من الأمصار .

الوضع السياسي قبيل الفتح :

كان الوليد بن عبد الملك الخليفة المرواني أمير المؤمنين يقطن
دمشق وإليه جماع أمر المسلمين ، وكان والي من قبله على
أفريقية الأمير موسى بن نصير ، ويقم في مدينة القيروان التي
أسسها عقبة بن نافع الفهري سنة خمسين من الهجرة ، وقد أمر
موسى مولا طارق بن زياد على مدينة طنجة .

أما الشعب الإسلامي في هذه المنطقة الساحلية بأفريقية من :

١ - العرب : وهم حملة المشاغل الأولى للدين الجديد .

٢ - البربر : وهم السكان الأصليون .

وقد صهر الإسلام جميعهم في بوتقة واحدة ، وصيرهم شعباً
واحداً ، وغدوا أمة واحدة متحدوهم روح واحدة .

أما في شبه جزيرة الأندلس فكان الرومان يحكمونها منذ
عصور سحيقة في القدم : ويقال إن ثاني قياصرتهم أصدر
أمرا بتشيد المدن في الجزيرة الأيبيرية ، وبعث لهذا الغرض
أربعة من أقطاب مملكته لتنفيذ هذه الرغبة السامية ، فشيد كل
واحد من الأربعة مدينة بالجهة التي ولى أمرها ، وسمّاها باسمه ،
وكانت هذه المدن هي :

١ — قرطبة ٢ — أشبيلية ٣ — ماردة ٤ — سرقسطة .
وظلت شبه الجزيرة خاضعة للحكم الروماني القيصري حتى
أغار عليها قبائل الوندال في القرن الخامس الميلادي : ومن ثم
أطلق على هذه البلاد « قاندولوسيا » : أي بلاد الوندال .
ولكن لم تشأ القبائل القوطية أن تترك الوندال ينعمون بهذه
الأرض الطيبة حتى أغاروا عليها ، وطرّدوا الوندال إلى إفريقيا ،
وكونوا لهم دولة قوية في إسبانيا ، عمرت فيما يقول المقرئ
نحو من أربعمئة سنة إلى أن جاء الإسلام .

وكان آخر هؤلاء الملوك القوطيين ملك يدعى « غيْطَشَه »
هلك عن أولاد ثلاثة صغار ، لم تؤهلهم سنهم إذ ذاك لضبط
الملك وتدير شؤنه ، فأنحرف قائد الخيل ويدعى « رودريك »
ويسميه العرب « لذريق » بمن تبعه من رجاله ، وجلس على

العرش يؤيده نبلاء القوط ، ورجال الكهنوت ، وسار إلى قرطبة ، بعد أن كان ملوك القوط الأصليين ينزلون « بطليطة » . وهناك على الساحل الإفريقى تقع مدينة « سبتة » وكانت هذه المدينة من الناحية السياسية تخضع للحكم القوطى ، ويدين حاكمها له بالطاعة والولاء .

هذا الحاكم يدعى « يوليان » ، ويقول المؤرخون عنه ، إنه كان ينقم على لذريق لفعلة فعلها . . .

زعموا - أن ابنته الناشئة كانت تربي في البلاط الملكى كوصيفة للملكة شأنها فى ذلك كشأن بقية بنات البطارقة . . . ولتأخذ حظها من الذوق والأدب ، فأعجب لذريق بمجالها واعتدى على عفافها . فبعثت إلى أبيها سرا لتفضى إليه بمكنون أمرها ، فأجاز يوليان البحر . . . ووصل إلى البلاط الملكى ، فاستقبله الملك حافلا به ، ثم قرب به وأدناه ، ليمحو من نفسه أثر جريمته ، ثم ودعه بمثل ما استقبله به من حفاوة وإكبار ، ورجاء فى أن يبعث إليه بعض الصقور ليزين بها قصره ، فأجابه يوليان على الفور - ونار الحقد تنهش أحشاءه « سأبعث إليك بعض البزاة^(١) التى لا عهد لك بها من قبل .

(١) البزاة : من الطيور الجارحة التى يصاد بها .

وشأن هذه القصة كشأن الكثير من القصص الذي لازم
الفتح ، وذلك كقصة تدمير طارق للمراكب الحربية التي أقلته
وجيشه إلى الشواطئ الإسبانية .

ثم قصة رؤية طارق للنبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم
وحول النبي المهاجرون والأنصار ، قد تقلدوا الجميع السيوف ،
وتنكبوا القسي ، فيقول الرسول الكريم « يا طارق تقدم
لشأنك . . . ونظر طارق حوله فرأى النبي صلى الله عليه وسلم
قد تقدم أصحابه ودخل أرض الأندلس ، فهب طارق من إغفائه
مستبشرا ، ونبا أصحابه بأن ساعة النصر قريب .

هذه القصص وأمثالها لقيت من الخيال الشعبي في القرون
الوسطى خصوبة بالغة وامتد أمرها إلى الشعر والنثر : ورددها
الكثير من المؤرخين العرب والإسبان .

الفتح :

كان هناك عنصران أساسيان جعلتا سرعة الفتوح الإسلامية
أشبه ما تكون بالأساطير ، والعنصران هما :

أولا — العنصر العسكري : ويشتمل في القوة للفتوة
الحربية المهاجرة التي أخرجت خبثا شبه الجزيرة العربية ،

واحتفظ بها الزمن لهذا العصر المشهود ، عصر الإنسانية الزاهر ،
ومجدها اللامع .

ثانياً — كان هؤلاء العرب يحملون لواء حضارة جديدة
تفوقت على حضارة الشعوب المغلوبة فانساب الفتح الإسلامى
فى طريقه كالسيل الدافق ، فى إفريقيا وآسيا ، وحطم دولتين
عظيمتين كان يدهما زمام العالم ، ومصيره إذ ذاك .

وإفريقيا كانت هى نقطة الانطلاق إلى ما وراء المضيق بعد
أن خضع سكان ساحلها المجيد لسلطان المسلمين ، وصار أهلها
جمهرة تثقد قوة وعزيمة ، وسرت نشوة الانتصارات المتلاحقة
فى عروقهم ، وجرت منهم مجرى الدم فى العروق ، فرماحهم
الشرعة لا تعرف المهادنة ، وسيوفهم المهندة تواقة لملاقاة عدوهم
التقليدى .

فهل يا ترى سيأتى ذلك اليوم المأمون الأغر ، وهل سيكتب
القدر بأصابعه حروف هذا اللقاء ؟

إنهم يقفون الآن على الشاطئ الإفريقى ، وعيونهم ترنو
فى إصرار عجيب إلى هذه الوديان القرية ، والتي ليست
عنهم بعيد .

فبالحال من سمات سيدة تلك التي يؤمرون فيها بالعبور
إلى هذه الجنات الباسقات .

لقد حدثت المعجزة !

إن على إسبانيا رجلا اغتصب الملك من أهله الشرعيين ،
ودنس شرف أحد أعوانه المخلصين .

ينهض هذا البطريق الموتور إلى الأمير المسلم طارق بن زياد
ويتفق معه على غزو إسبانيا ، ويكشف لصديقه الجديد
عن عمرة عدوه ، ويدله على مكان الضعف فيه ، فيتأهب طارق
للغزو بجيشه ، ويساعد البطريق يوليان بمرأته وأدلائه ،
ثم ينزل بجيشه لجب فوق صخرة تسمت باسمه وعرفت فيما بعد
بجبل طارق .

وينتهي الأمر الجلل إلى لذريق ، الذي كان وقتها مشغولا
بإخضاع ثورة قامت ضده في الشمال ، فيقفل مسرعا حيث تلقاه
جيوش المسلمين عند وادي نهر « لسكة » فيهزم وجيشه هزيمة
ساحقة منكرة ويختفي لذريق إلى الأبد ، ولم يقف له أحد
على أثر من بعد (١) .

(١) تذكر بعض الروايات الإسبانية أن لذريق لم يموت في هذه
الموقعة ولكنه دافع بعد ذلك عن وطنه في مواطن عدة ثم مات
في البرتغال وهذا يخالف لما عليه إجماع الروايات العربية :

ويشتد الخبر في كل مكان ، ويسابق أشعة الشمس ،
ويتهى إلى موسى بن نصير الوالى على إفريقية ويأمر طارقا
بالتوقف ريثما يلحق به ، ولكن طارقا يخشى مغبة هذا
التوقف ، فيعقد في الحال مجلسا عسكريا استشاريا يضم أركان
حربه ، ويشير عليه المجلس بأن عملية التوقف ربما تعطى العدو
فرصة التجمع والتكتل ، فينهض طارق ، ويقسم جيشه
إلى فرق يثبثا في شبه الجزيرة .

ويلحق موسى بجيوش المسلمين ، ويسلك طريقا آخر
غير الطريق الذى سلكه طارق ، ويذهب الجميع في توطئة
أكناف شبه الجزيرة ، وضمها إلى حظيرة الإسلام .

ومنذ ذلك اليوم ارتبطت الأندلس الإسلامية بالمغرب
الإسلامى في المدة التى تلت الفتح ، وكان واليها يولى من قبل
أمير إفريقية . وكان أول وال تولى السلطة فيها بعد الفتح
عبد العزيز بن موسى بن نصير ، عينه أبوه أميرا عليها بعد أن
رحل إلى الشرق بناء على طلب الخليفة بدمشق .

وشاءت المقادير أن يتزوج عبد العزيز بفتاة مسيحية أغرته
بدلالها ، وسحرته بفتنتها وأملت عليه بعض الأشياء ، اعتبرها
المسلمون خروجا على تقاليد دينهم ، فثاروا عليه وقتلوه ،

وأمرُوا عليهم أيوب بن حبيب واليا على الأندلس .

عبد الرحمن الداخل - صقر قريش :

حينما سقطت دولة بني أمية في الشرق على أيدي أبناء عمومتهم العباسيين تناولوهم بالتقتيل ... وكأنها كانت حرب إبادة ، فشاء الحظ أن تكتب النجاة لشخص من بني مروان يدعى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، - الذي لقب فيما بعد - بصقر قريش .

خرج هذا الفتى طريدا شريدا يلتمس النجاة من يد أعدائه وزودته أخته ببعض النقود يستعين بها في تدبير شئونه ... ثم بعثت في إثره بخادم يدعى بدرا ... وقد لعب هذا الخادم دورا هاما في حياة عبد الرحمن .. وظل عبد الرحمن ومولاه يتنقلان خفية من مكان إلى مكان حتى وصلا إلى أرض الأندلس حيث كان لبني أمية حزب قوى ، ولهم فيها عدد كبير من الموالى والأنصار ومعظمهم ممن اشترك في الفتح من الشاميين الذين قامت على أكتافهم الدولة الأموية .

ويظهر أن عبد الرحمن اختار الأندلس محطاً لرحاله لسببين . . الأول أنها كانت بعيدة عن مركز الخلافة الغاضبة

لدولة بنى أمية . والثانى كثرة الموالين للحزب الأموى فيها .
واستطاع هذا الطريد بمهارته أن ينشئ ملكا أمويا
جديدا استقل به عن الخلافة الشرقية - خلافة بنى العباس -
وقد كان النجاح الذى ظفر به الداخل حافزا للكثير من
الأمويين على الهجرة إلى إسبانيا وقد أغدق عليهم عبد الرحمن
المناسب والهبات .

ولقد حاول الخليفة العباسى أن يقضى على هذا الداهية .
ولكن عبد الرحمن كان من اليقظة والحنكة بحيث قضى
على أعدائه ، وبعث برءوسهم فى (غداثر) إلى الخليفة فى موسم
الحج مما جعله يقول قولته المشهورة : الحمد لله الذى جعل
بيننا وبينه بحرا . .

ومن هذا التاريخ الذى تولى فيه عبد الرحمن أمر الأندلس
بدأ دور قرطبة فى توجيه دفعة الأمور ، وبرزت إلى قمة الوجود
للتشارك عواصم العالم المتحضر - إذ ذاك - فى السياسة والثقافة
والعمارة وجميع مظاهر الحياة الحضارية ... وصارت مستقر
الخلافة . . وموطن الوزارة . . . وكعبة الشعراء والأدباء . .
وموئل أهل العلم ، ومقصد الطلاب . . . ومورد الثقافة .

الاستقلال السياسى :

كان دور هذه الدولة الناشئة يقوم على تثبيت أقدام الأمويين ، وتنمية استقلالهم السياسى فى الوطن الجديد . . لهذا نرى عبدالرحمن الداخل ينفق حياته فى إخماد الثورات الداخلية التى قامت ضده ، والتى كانت تطل برأسها فى أحيان كثيرة . . وعنى بشكل خاص بإخماد أنفاس كل دعوة لها صبغة غير الصبغة الأموية . . وسار بنوه وأحفاده ومن تعاقب من الأمويين على هذه النزعة الاستقلالية . . نزعة توطيد الملك وحمايته من التأثيرين عليه والطامعين فيه . . . وقد واجه الأمير النذر والأمير عبدالله بعض هذه الأخطار التى هددت أمن الدولة واستقرارها ردحا من الزمن . . . وقد تجسم هذا الخطر بشكل ملحوظ فى التأثير المتمرد عمر بن حفصون الذى تظاهر باعتناق الإسلام وأبطن غير الإسلام فى قلبه . . وكان مركزه « بر بشت » . . وسوار ابن حمدون بنت شاقند ، وسعيد بن جودى بالغرب ، وإبراهيم ابن حجاج بمدينة إشبيلية .

وتهدأ الأمور أحياناً ، وتضطرب حيناً حتى جاء عصر عبدالرحمن الذى لقب نفسه بالناصر . . فازدهرت فى أيامه

الآندلس . ونافست قرطبة في عظمتها عظمة القيروان وبغداد والقاهرة وبخارى ودمشق ، وأصبحت قبلة العلماء والشعراء والكتاب والفنانين .. وخلق عبدالرحمن من الآندلس - مسرح الأطماع - دولة قوية عزيزة الجانب ، حتى ليكن أن يقال إن قرطبة لم تكن في عهد من عهودها أغنى ولا أكثر ازدهارا في أى وقت مما كانت عليه في عهد الناصر .

ويذكر بعض المؤرخين أن سبب اتخاذ عبدالرحمن لقب « الناصر » دون من تقدمه من الأمراء أن هؤلاء كانت تحوّلهم بواعث الحكمة والسياسة والتحوّل من إثارة الفتن . والخلافات الدينية والمذهبية ... ولكن لما ظهرت الدولة الفاطمية بالمغرب ، ونمت بسرعة في أوائل القرن الرابع الهجرى ، ثم تواترت الأنباء من جهة أخرى عما انتهت إليه الدولة العباسية في المشرق من الاضطرابات والفوضى ، وما أحدثه استبداد موالى الأتراك وحجّرهم على الخلفاء ، رأى عبدالرحمن أن الفرصة سانحة لأن يتسم بسمة الخلافة ، وأن يسترد بذلك تراث أسرته الروحية . . وأنه بما وفق إليه من النهوض بالدولة الإسلامية وتوطيد أركانها أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلّة وهى دولة بنى العباس ، وأخرى طارئة وهى دولة العبيديين أو الفاطميين ونفذ الأمر

بذلك في أول ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ .

وينقل الأستاذ عبدالله عنان عن صاحب البيان المغرب نص الوثيقة التي أصدرها الناصر بصددها الموضوع وإليك نصها :
« بسم الله الرحمن الرحيم » . أما بعد ، فإن أحق من استوفى حقه وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه للذي فضلنا به ، وأظهر أثرنا فيه ، ورفع سلطتنا إليه ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا وعلو أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا واستبشارهم بدولتنا ، والحمد لله ولي الإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه . وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين وخروج الكتب ووردوها علينا بذلك - إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه ، وعلمنا أن التماذي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه ، فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله . والله المستعان . وكتب يوم الخميس لليلتين خلتما من ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ .

وهكذا تدلنا هذه الوثيقة التاريخية على أن عبد الرحمن

رأى نفسه أفضل من يتخذ سمة الخلافة ، وفي لوقت نفسه يعتبر التحلى بهذا اللقب حقا من حقوق بنى أمية ، وتسمى بأمر المؤمنين الناصر لدين الله . فكان بهذا الصنيع أول أمير من بنى أمية بالآندلس ينعت بإمرة المؤمنين . . وبدأت الدعوة له بذلك ولمن أتى بعده من بنى أمية ، ونقشت ألقاب الخلافة على السكة .

وغدا أمير المؤمنين - وهو فى قرطبة - يمثل سلطانه سلطان المسلمين والإسلام فى الغرب الإسلامى . . فوفدت عليه السفارات للمسيحية تلتمس المفاوضة فى شتى الشئون الثقافية والتجارية والسياسية ، بل لقد ظلت الدولة المسيحية أشبه بالحماية للدولة الإسلامية إلى القرن الحادى عشر . . وكانت قرطبة أشبه ما تكون بالعاصمة الكبرى لإسبانيا ، يفد إليها الملوك والسفراء يقدمون إلى صاحبها فروض الطاعة والولاء ، ويستجيبون به ويستظلون بظل سلطانه .

وكانت الأبهة والترف تهران سفراء الدول مما جعلهم يتحدثون بذلك وينقلونه إلى بلاط بلادهم كما وقع مثلا لجان دى جوريس سفير امبراطور ألمانيا أوتون الأول إلى عبدالرحمن الناصر .

ومما هو جدير بالذكر أن عصر الناصر كان من أحفل

العصور بصلات الإسلام والنصرانية ، فكانت ثمة معاهدات وعلاقات سياسية وسفارات بين قرطبة ومعظم الأمم النصرانية ؛ وتوالت وفود ملوك النصرانية يومئذ على بلاط قرطبة ينشدون الحلف ، ويرجون الصداقة والودعة من زعيم الإسلام في الغرب .

ففي سنة ٣٦٦هـ سنة ٩٤٨م وفدت على الناصر رسل قسطنطين السابع امبراطور قسطنطينية المعروف بيورفير وچنتوس بهدية ثمينة ، واحتفل الناصر بقدوم أعضاء تلك السفارة احتفالا مهيبا — وكان يوما مشهودا زين فيه القصر الخلافي بأبدع زينة ، ونظمت العساكر والجنود تنظيما غريبا أدهش ضيوف الناصر ..

وجلس أمير المؤمنين على كرسي الخلافة في مهابة وإجلال يحف به أعضاء الأسرة الأموية وكبار رجال الدولة من الحجاب والوزراء وقدموا إلى الناصر كتاب الإمبراطور مكتوبا باليونانية ، وعلى الكتاب طابع ذهبي على أحد وجهيه صورة المسيح وعلى الآخر صورة الإمبراطور مصنوعة من الزجاج الملون البديع وفي ترجمة عنوانه ما يلي :

« من قسطنطين وزمانين المؤمنين بالمسيح الملكين العظيمين ملكي الروم إلى العظيم الاستحقاق الفخر ، الشريف النسب عبدالرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس أطال الله بقاءه »

ومثل خطباء الأندلس أمام السلطان يذكرون مجد الأندلس وعظمة السلطان .

وقد أفاضت الرواية الإسلامية في تفاصيل هذه السفارة إفاضة واضحة ولكنها لا تلقى كبير ضوء على غايتها وموضوعها . وأكبر الظن أنها لم تكن إلا لتوطيد العلائق الطيبة بين بلاط قرطبة وبلاط قسطنطينية .

والحقيقة أن المصالح المشتركة بين بيزنطة وقرطبة هي التي دعمت أواصر الصداقة بينهما ، ولم تكن المصالح المشتركة بينهما سوى مقاومة الدولة الفاطمية الإفريقية الفتية التي ابتدأت تزعج حكومة بيزنطة في أواسط البحر الأبيض المتوسط ، وتزعج بدورها حكومة قرطبة بتوغلها في المغرب الأقصى . .

وشيثاً آخر كانت تخشاه الدولتان ، فبيزنطة كانت تشكو من الخلافة الشرقية من الشكوى ، وعبت الخليفة المأمون وأخيه المعتصم في أرض القياصرة ثم من استيلاء البحارة الأندلسيين بقيادة أبي حفص البلوطي على جزيرة قريطش وهي من أملاك قيصر قسطنطينية . فهي بحلفها مع قرطبة أمنت سطوتها من ناحية ، ومن ناحية أخرى اعتمدت على حليف قوى مناهض للخلافة الشرقية التي أوشكت أن تترنح على أيدي الغلمان الأتراك

ودولة الفاطميين الناشئة في إفريقيا .

أما قرطبة فرغم قوتها وشدة بأسها فكانت تخشى هي
الأخرى الغزو الأفريقي المرتقب ثم من الغارات المتكررة من
المجوس . . ومن أجل هذا نرى أمراء بني أمية قد اهتموا
باصطناع سياسة بحرية ، وعملوا على إعداد أسطول قوى يدفع
عن الأندلس تلك الأخطار الناجمة عن هذه الغارات .

وقد اهتم بها عبدالرحمن الناصر بصفة خاصة . ويذكر
العلامة ابن خلدون في مقدمته أن أسطول الأندلس قد انتهى
في أيامه إلى مائتي مركب أو نحوها . ثم أخذ هذا الأسطول
الأموي الحربي يسدد ضرباته إلى ممتلكات الفاطميين في بلاد
المغرب . ففي سنة ٣١٩ هـ = سنة ٩٣١ م سير عبدالرحمن إلى ثغر
سبته أسطولا قويا استولى عليها من يد البربر ولاتها - وهم
بنو عصام حلفاء الفاطميين ، وبادر زعماء البربر من الإدارة
وزناتة إلى طاعته ومهادته وامتدت دعوته إلى فاس ، وبعث
إليه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة يطلب محالفته والدخول
في طاعته ، فأجابه عبدالرحمن إلى طلبه وأمدّه بالأموال
والهدايا وقوى أمره في المغرب . وفي سنة ٣٢١ هـ = ٩٣٣ م
استطاع موسى حليف عبدالرحمن أن يهزم جيشا أرسله عبيد الله

الفاطمي لغزو المغرب والقضاء على دعوة الناصر بقيادة قائد ابن يصل حامل تاهرت .

ولما تولى الملك للعز رابع الخلفاء الفاطميين وبدأت الدولة الفاطمية في أوج قوتها ، أخذت أساطيلها تتأهب لغزو الأندلس وسارت بعض السفن في سنة ٣٤٤ هـ - سنة ٩٥٥ م لمهاجمة ثغر المرية وأحرقت ما فيه من السفن وعانت فسادا في المرية ذاتها ، فما كان من عبد الرحمن إلا أن رد على هذه الحملة بحملة أخرى ، فأرسل قوة بحرية بقيادة أمير البحر غالب إلى شواطئ إفريقية (تونس) فعانت فيها ، وأمر عبد الرحمن بلعن الشيعة والفاطميين على منابر الأندلس ، ثم عاد بعد ذلك بثلاثة أعوام فسير أسطوله ثانية إلى إفريقية بقيادة أحمد بن يعلى تهديدا للقوات الفاطمية التي زحفت بقيادة جوهر الصقلي حذاء الشاطئ إلى عدوة للغرب ، وعبرت حملة أندلسية أخرى من طريق سبتة إلى المغرب ولبثت هناك حتى ارتد الفاطميون إلى أدراسهم .

أما المجوس فقد ظهروا على الساحل الشرقي للأندلس وحاصروا حصن القبطة من حصون المرية أيضا - وكان ذلك في عصر الحكم - مما اضطره إلى الذهاب بشخصه ليتفقد الأعمال الدفاعية وليشرف عليها بنفسه . . ويذكر ابن الخطيب أنه

أنشأ الأسطول لغزوهم ، فكان عدده ستائة .
وقد استخدم النصور بن أبي عامر بعض وحدات من هذا
الأسطول في حملاته الحربية على ساحل قطلونية وجليقية
سنة ٣٧٤ هـ — سنة ٩٨٥ م . وكانت مدينة المرية هي قاعدة
الأسطول .

الحالة الاقتصادية :

لم تعد إسبانيا الإسلامية ولاية تابعة للخليفة في بغداد كبقية
البلاد التي خضعت لسلطان المسلمين ، فقد انتهت هذه التبعية
بدخول عبد الرحمن الأول مؤسس خلافة قرطبة . . رغم أن
أحدا من هؤلاء الأمراء لم يلقب بلقب الخلافة — كما أسلفنا —
حتى جاء عبد الرحمن الناصر . .

وصارت إسبانيا الإسلامية في عهد بني أمية أغنى بقعة
في أوروبا وأكثرها ازدهاما بالسكان . . ولذلك اهتمت حكومة
قرطبة بالسياسة الإنتاجية اهتمامها بالمسائل السياسية والحربية ،
فغنيت بالزراعة وشقت لها الترع وحفرت القنوات ، وجلبوا
إلى الأندلس كثيرا من الأشجار والثمار التي لم تكن معروفة
من قبل ، ويقول المؤرخون الإسبان : ورغم أن المسلمين

لا يشربون الخمر - وفقا للقواعد الدينية إلا أنهم اهتموا
بزراعة شجر الكرم .. ثم الأرز .. وقصب السكر في أما كن
الخصب وخاصة مرسية ، وقالينثيا ، وغرناطة .

وقد انتعشت الصناعة - هي الأخرى - في هذا القطر
انتعاشا ملموسا .. فكانت هناك مناجم الحديد والذهب والفضة
والكثير من المعادن الأخرى ، واشتهر بالصناعة من المدن :
جيان ، والجرب ، وباجة ، ومالقة .. أما صناعة الحرير
والصوف فقد اشتهرت بها قرطبة ، ومالقة ، والمرية .. وبلغ
عمال المصانع في قرطبة وحدها ما يقرب من ١٣٠٠ عامل ..
ومن المدن التي اشتهرت بصناعة ورق الكتابة : كونيكا ..
ومن الصناعة التي أدخلها العرب صناعة الأسلحة ، واشتهر
من المدن بهذه الصناعة مدينة : طليطلة ، وقرطبة ومن أجل
حياة سعيدة فاضلة ارتبطت حكومة قرطبة اقتصاديا بالمدن
الإفريقية كالقاهرة ثم بزنطة وعامة بلاد الشرق .

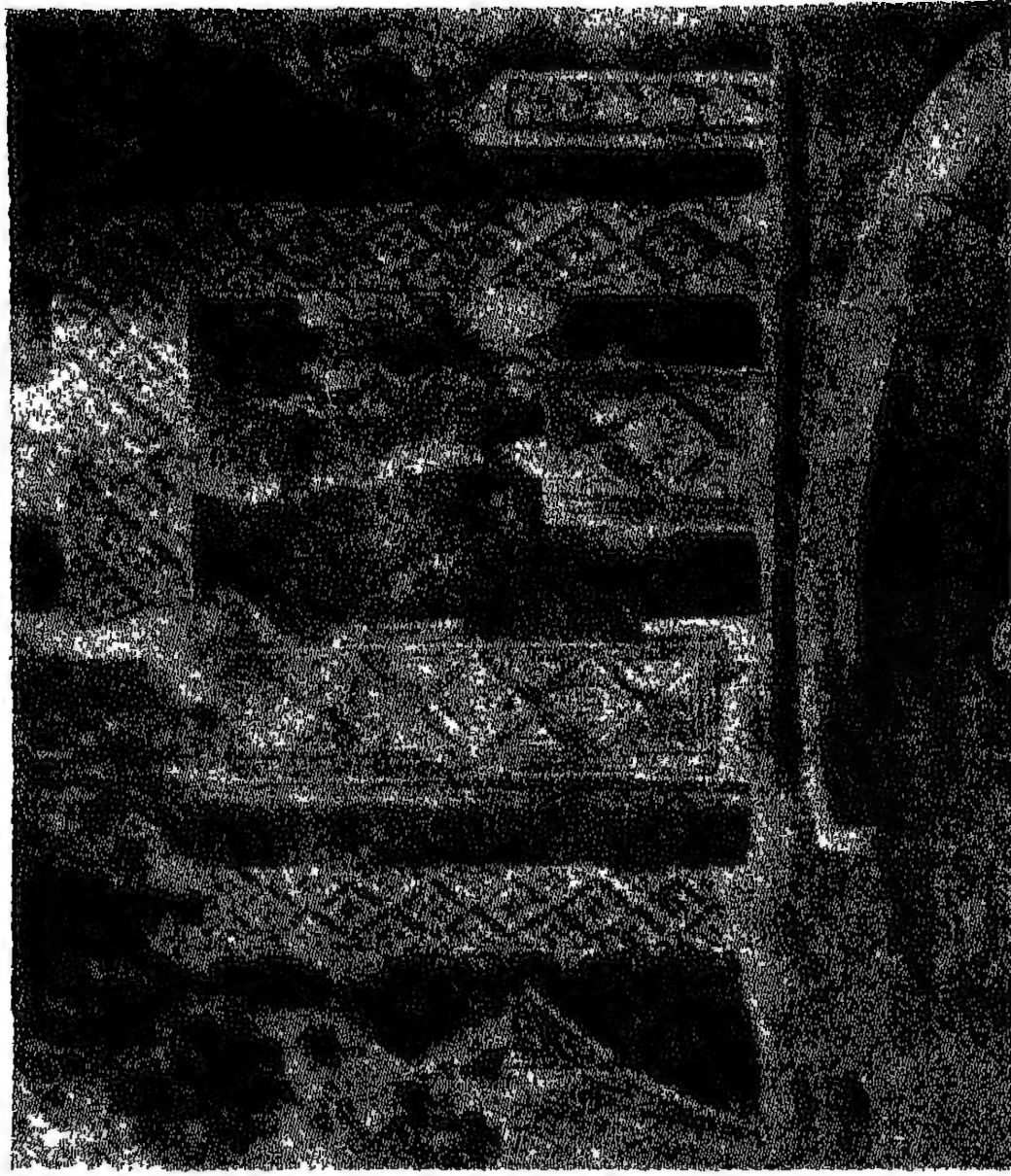
العصران :

رأى أمراء بني أمية أن تشييد البنيان مما يزيد في تخليد
مآثرهم ، وينسبون إلى الناصر أياتا قالها في هذا المعنى وهي :

هَمَّ الملوك إذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم
ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعظم شأنه
أضحى يدل على عظيم الشأن

ولذلك نلاحظ أنه ما يكاد يستقر المقام بعبد الرحمن الداخل
حتى يسرع فيبنى قصر الإمارة بقرطبة ، ثم المسجد الجامع . .
ومع أن هذا الفتى قد خرج من الشرق في ظروف يعز على غيره
النجاة منها ، إلا أننا نراه يغلبه الحنين والشوق إلى أربعه
وملاعبه ، وتأخذه أبهة قصور آبائه وأجداده وتملك عليه
حواسه ومشاعره . . فراح يخلد ذكراه في قصر بناء وسما
قصر الرصافة تشبها له برصافة جده هشام بدمشق ، وجاء
عبد الرحمن الأوسط يحكى نفس القصة ، فشيّد القصور
وبنى المساجد الجوامع ، وأدخل في البلاد كثيرا من مظاهر
الحياة الحضارية التي سبقت إليها من الشرق .

أما في عصر عبد الرحمن الثالث فيقولون إن قرطبة كانت
تحتوى في عصره ٥٠٠ ألف نسمة ، ومن الدور ١٣٠٠٠ دار . .



تفاصيل زخرفية على الحجر من بقايا مدينتي الزهراء وقرطبة

عددا القصور الفخمة ، والضواحي التي بلغت حوالى
الثمانية والعشرين . . . وكان فيها من الحمامات ما يقرب من
الثلاثمائة . . . ومن المساجد نحو ثلاثة آلاف مسجد .

ويقول المقرئ فى تقسيم قرطبة : « وهى فى تقسيمها خمس
مدن يتلو بعضها بعضا ، وبين المدينة والمدينة سور عظيم حصين
حاجز ، وكل مدينة مستقلة بنفسها ، وفى كل منها من الحمامات
والأسواق والصناعات ما يكفى أهلها . . .


ثم يقول : « وكان يتبع قرطبة ثلاثة آلاف قرية فى كل منها
منبر وفتية مقلد ، تكون له الفتية فى الأحكام
والشرائع ، وتبصير الناس بأحوالهم وأمور دينهم . . . وكان يأتى
إلى المسجد الجامع بقرطبة هؤلاء المقلدون لتأدية صلاة
الجمعة مع الخليفة ويسلمون عليه ويطلبونه بأحوال الرعية » .
وقد بلغت شهرة قرطبة أهل أوربا فأطلقوا عليها فى النصف
الثانى من القرن الرابع الهجرى « جوهرة العالم » .

وسنلتقى معك أيها القارئ العزيز على الصفحات التالية
لنشاهد معا كيف كانت قرطبة بمساجدها وقصورها ومنتزهاتها
ثم بثقافة مثقفها ، وعلم علمائها ، وكتابة كتابها ، وشعر شعرائها .



سجاد قرطبة

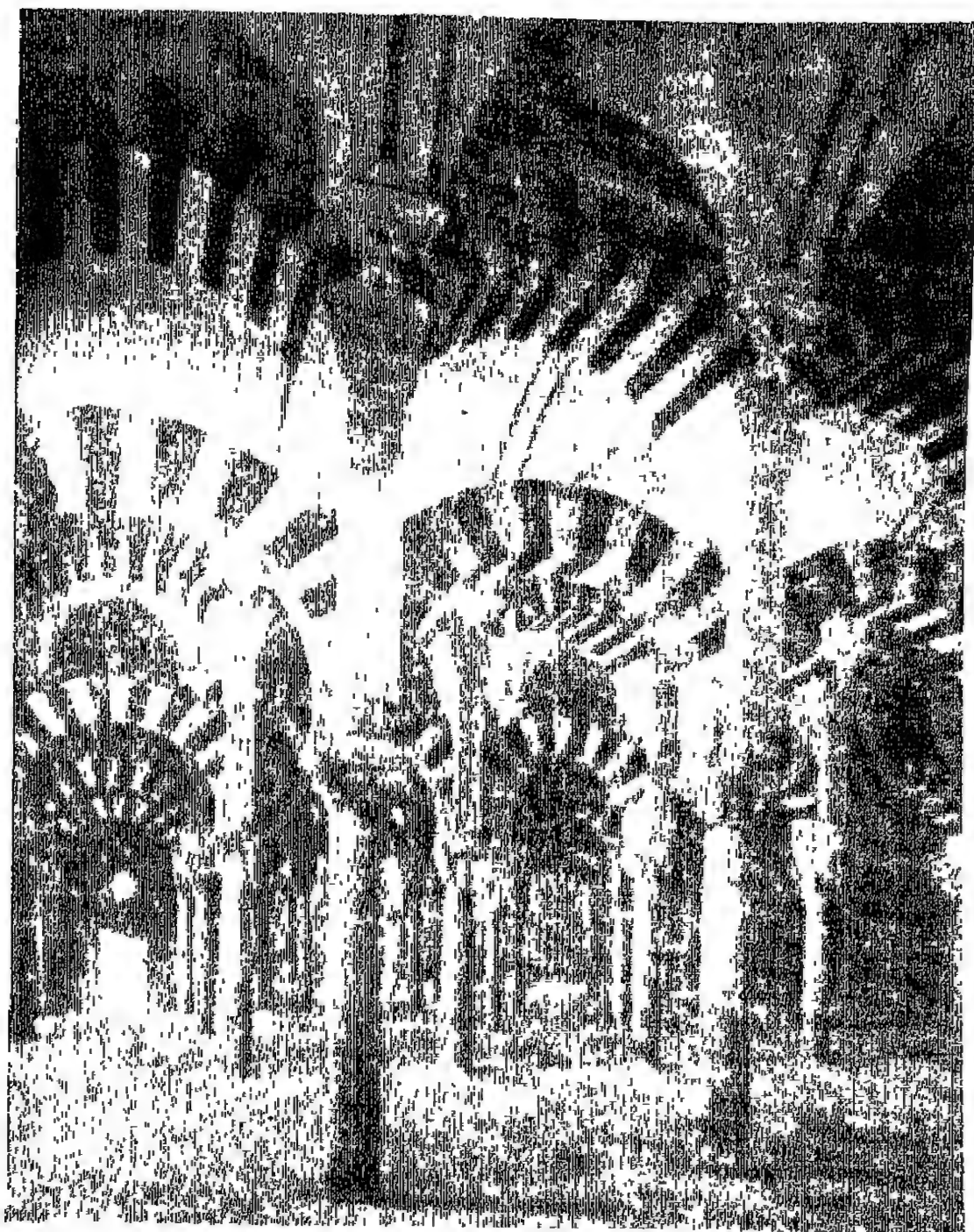
مسجد قرطبة

سقوط قرطبة في أيدي العرب المسلمين شاطروا 
المسيحيين في مبدأ أمرهم - كنيستهم العظمى التي
كانت داخل المدينة وتحت سورها . . وكانت تعرف باسم كنيسة
القديس بنيامين ، فاتخذوا شطرا منها مسجدا وظل الشطر الثاني
كنيسة كما هو ليؤدى فيه للمسيحيون الطقوس الدينية والراسيم
الكهنوتية .

ولما آل الأمر إلى عبدالرحمن الداخل الأموى ، واستقرت
له الأمور - كما سبقت الإشارة إليه - أخذت قرطبة بأسباب الحياة
والازدهار ، وفكر عبدالرحمن في إقامة مسجد جامع يضارع
للمسجد الكبير بدمشق في بهائه ورونقه . . وهنا تجلّت قدرة
العرب ومواهبهم الفنية في تشييد مساجدهم حيث يؤدون صلواتهم ،
ويحافظون على شعائر دينهم .. فكانت هذه المساجد آية من آيات
الفن . وروعة من روائع الزمن . وفاقت المساجد الإسلامية
الكنائس المسيحية عظمة . ونافستها في زخرفتها ونقوشها .

تذكر الروايات أنه في سنة ١٦٨ هـ سنة ٧٨٨ م ساوم

قرطبة - ٣٣٣



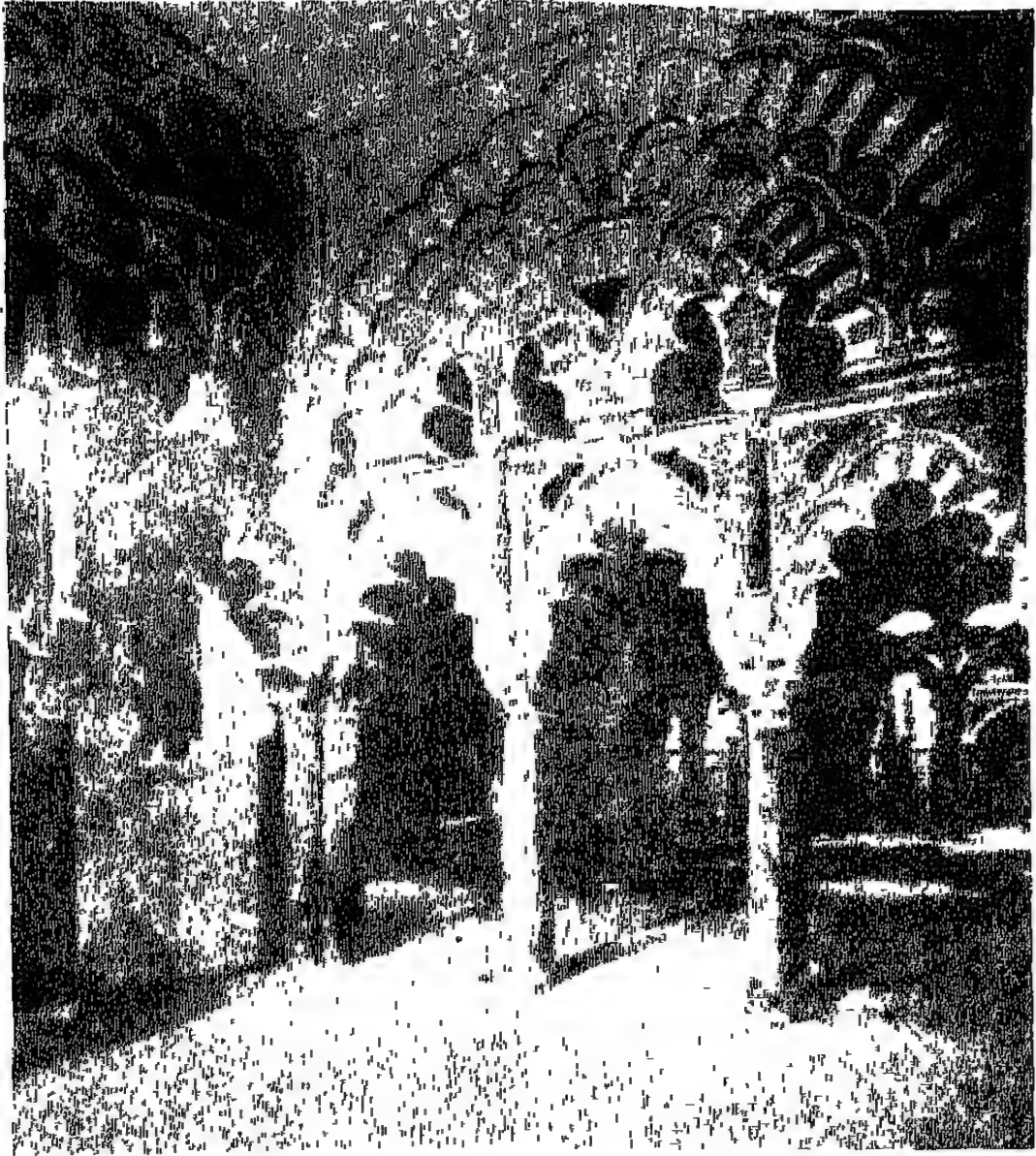
داخل المسجد

عبدالرحمن المسيحيين على ما بأيديهم من الكنيسة المجاورة
للجامع ... وأجذل لهم فيها العطاء ، وأوسع لهم في الثمن ...
فتنازلوا عن كنيستهم على شريطة أن يسمح لهم ببناء كنيستهم
التي خربوها بظاهر قرطبة .

ووضع حجر تأسيس هذا المسجد في عهد عبدالرحمن
الأول ، وظل العمل مستمرا طوال إمارته وبعدها . فقدمت
عبدالرحمن سنة ١٧٠ هـ قبل تمامه . . فآتمه خليفته وابنه هشام
الأول بن عبدالرحمن

ومن هذا التاريخ أصبح المسجد موضع اهتمام الخلفاء
من بنى أمية ومحل رعايتهم . . وتناولوه إما بالزيادة أو التجديد
أو الزخرفة أو النقش .

ومن كانت لهم أياد تذكر - بالحمد والثناء - في نحاتته
من الخلفاء . . هشام الرضا بن عبدالرحمن الداخل الذي
آتم ما ابتدأ به والده وعبدالرحمن الأوسط الذي زاد فيه
رواقين - ثم زخرفه . . ولكنه مات قبل إتمام الزخرفة ،
فآتمها من بعده ابنه محمد بن عبدالرحمن الأوسط . . وجاء
المنذر بن محمد الذي رمم ما وهى منه ، ... وعبدالرحمن الناصر
الذي أقام به صومعة عظيمة سنة أربعين وثلاثمائة من الهجرة -



المقصورة

وحلت هذه الصومعة محل الصومعة القديمة ، والحكم المستنصر
الذى أقام له ظلة تقي الناس هجير الشمس أثناء الصلاة ، ووجد
المبضات .

ويذكر المؤرخون أن تكاليف الزيادات التى سبخت بها
يد الحكم المستنصر بلغت قرابة واحد وستين ومائة ألف
من الدينار . .

ولم تقتصر العناية بهذا المسجد على خلفاء بنى أمية وحدثهم ...
بل تعدته إلى غيرهم . . . فترى الحاجب المنصور بن أبى عامر
يقوم بزيادة امتازت بالوثاقة والمتانة - دون الزخرفة - ولم تفقها
إلا زيادة الخليفة الحكم المستنصر بن عبدالرحمن الناصر .

ويقص علينا المؤرخون أن الحاجب المنصور هذا الذى تولى
الجبابة فى عهد هشام الثانى (٣٦٦ هـ - ٣٩٣ هـ) لما عزم
على القيام بتوسعة للمسجد ، جلس لأصحاب الدور التى نقل أصحابها
عنها ، والتى تتطلب التوسعة ضم رقعات دورهم إلى رقعة المسجد
للزيادة المرجوة ، فكان يقول لكل واحد منهم : « إن هذه
الدار التى لك يا هذا أريد أن أبتاعها لجماعة المسلمين من مالهم
وفيتهم لأزيدها فى جامعهم ، وموضع صلاتهم ، فاشطط واطلب
ما شئت » فإذا ذكر له أقصى الثمن الذى يطمح إليه ، أمر أن

يضاعف له ، وأن تشتري له بعد ذلك داراً عوضاً عن داره .

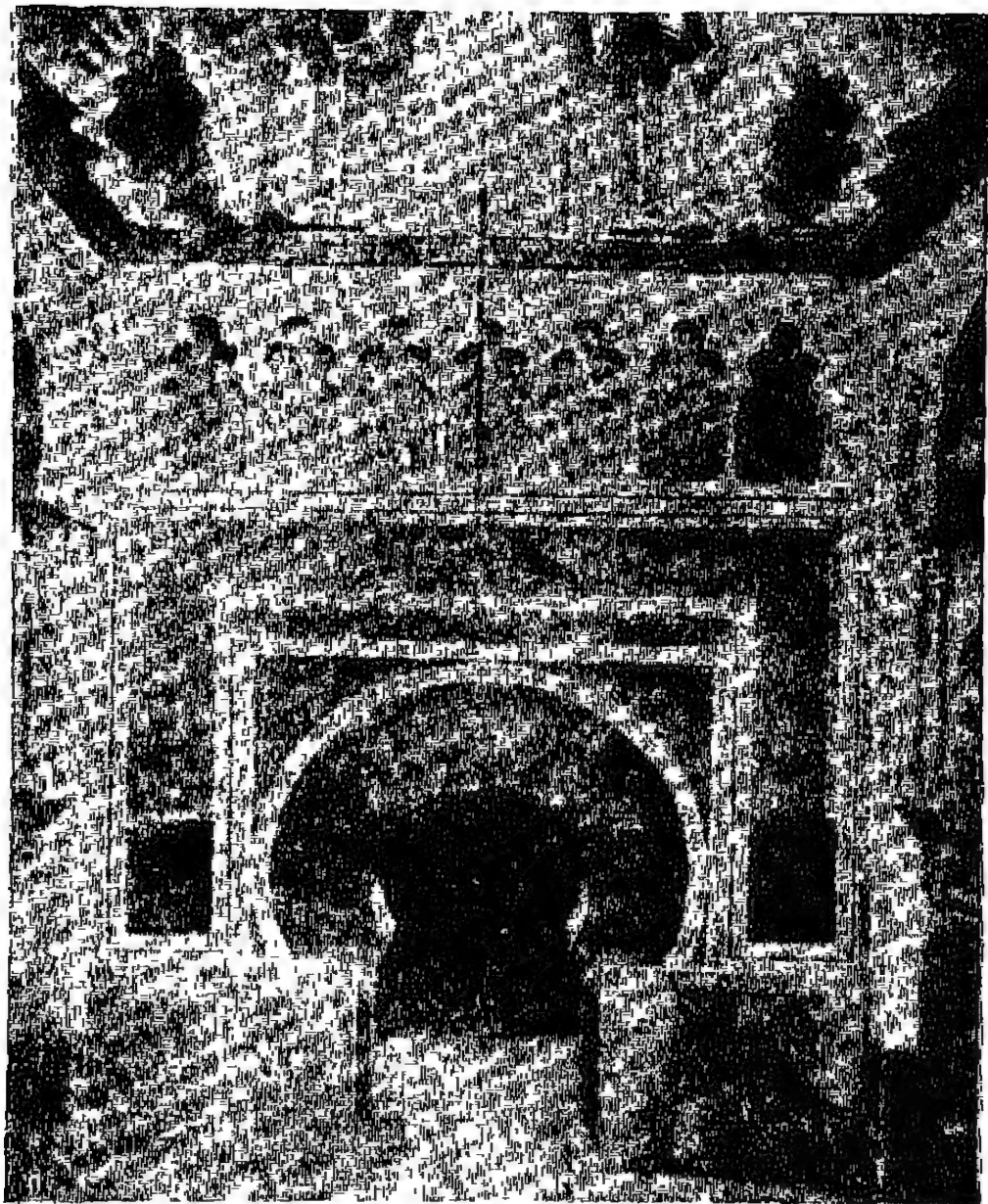
أمكنة الروض بالمسجد :

اقتضت الزيادة التي قام بها الحكم المستنصر هدم ميضأة المسجد القديمة ، وبنى أربع ميضآت بدلا منها ، اثنتين كبيرتين للرجال في جهتيه الشرقية والغربية ، واثنتين صغيرتين للنساء ، وكان الماء يجري في جميعها من قناة جلبت من سفح جبل قرطبة ، وتصب ماءها الذي لا ينقطع ليلا ونهارا في أحواض رخامية ، أما فضل هذا الماء العذب ، فكان يجري إلى سقايات اتخذت على أبواب المسجد بجهاته الثلاث ؛ الشرقية والغربية والشمالية إلى ثلاث جوارب من الرخام . وقد أزيات هذه الميضآت عندما تحول المسجد إلى كنيسة بعد سقوط قرطبة في يد المسيحيين في النصف الأول من القرن السابع الهجري

مماضيه :

بلغ طول المسجد بعد زيادة المنصور بن أبي عامر ؛ ثلاثين وثلاثمائة ذراع^(١) وأصبح عرضه : ثلاثين ومائتي ذراع .

(١) الذراع يساري ٥٨ سم



المحراب

أعمدته :

وأما أعمدته التي كانت من الرخام والتي كانت مكسوة بالذهب
واللازورد فقد بلغت عدتها - بعد الزيادة المشار إليها -
ثلاثة وتسعين ومائتين وألف عمود (١) .
وأصبحت بوائكه تسع عشرة من الشرق إلى الغرب ،
وإحدى وثلاثين من الشمال إلى الجنوب .

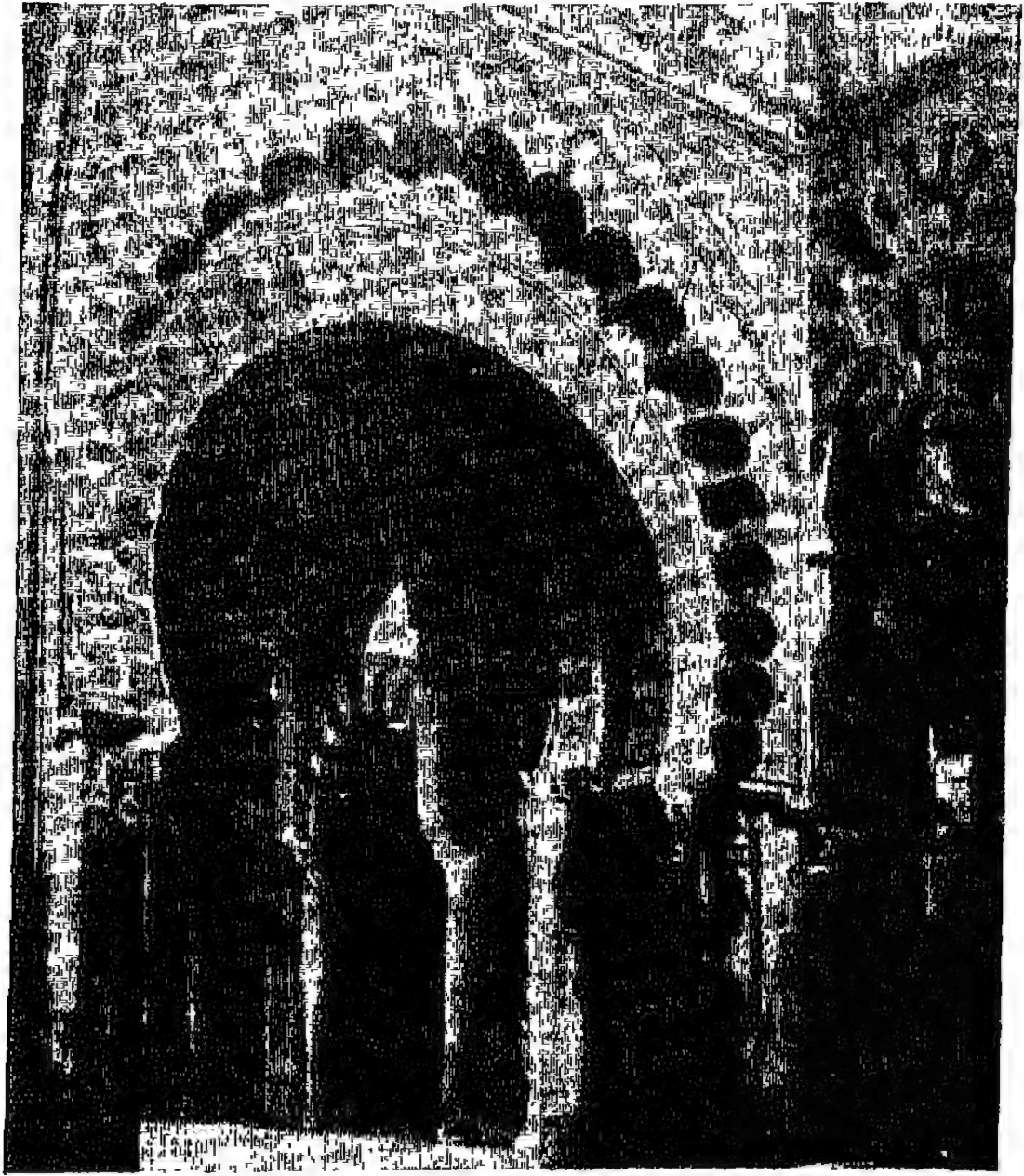
أبوابه :

وصارت أبوابه واحداً وعشرين باباً وقد كسيت بالنحاس
الأصفر اللامع الرائع الصنع ، ويذكر العلامة سديو المتوفى
في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي : أن الباب
الأوسط كان مرصعاً بصفائح من الذهب ، وبأعلاه ثلاث كرات
مذهبة تعلوها رمانة من الذهب ، وأن عدداً لأبواب تسعة عشر .

محرابه :

كانت حوائط المحراب مكسوة بالفسيفساء ، كما كانت تجرى

(١) يذكر سديو صاحب تاريخ العرب العام أن الأعمدة ١٠٨٣ .



ايوان القبلة

فيه الفضة ، وقد أزيل عند تحويل المسجد إلى كنيسة في القرن السابع الهجرى .

عنبره :

يقول المؤرخون إن منبر هذا المسجد كان مصنوعاً من العاج ونقيس الأخشاب ، وكان يتألف من ست وثلاثين ألف حشوة (قطعة صغيرة من الخشب) ممرت بمسامير من الذهب والفضة ، كما كانت بعض هذه الحشوات محلاة بالأحجار النفيسة .

المنارة بالمسجد :

كان هذا المسجد العظيم يثار في الليل بسبعمئة وأربعة آلاف من المصابيح ، ويستنفد في كل سنة أربعة وعشرين ألف رطل من الزيت ، وعشرين ومائة رطل من العنبر ، والند (العود) .
أما مصباح المحراب فكان مصنوعاً من الذهب الخالص ، ويقال إنه كان بالمسجد تنور من نحاس أصفر يتسع لألف مصباح .

خدمة المسجد :

كان يقوم على خدمة هذا المسجد حوالي الثلاثمائة رجل



مئذنة المسجد

لإيقاد البخور من العنبر والعود ، وإعداد الزيت العطر لإضاءة
عشرة آلاف فتيل للقناديل .

ويذكر المؤرخون أنه كان بهذا المسجد في بيت منبره
مصحف بخط الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ،
عليه حلية من ذهب مكللة بالدر والياقوت ، وعليه أغشية
الديباج ، وكان يوضع على كرسي من العود الرطب المسمر
بمسامير الذهب .

أقول نجمه :

ظل هذا المسجد كعبة القصاد ، تهفو إليه القلوب ، ويجذب
إليه طلاب العلم من كل من الشرق والغرب ، من مسلمين
ومسيحيين ، وذاع ذكره بين الناس ، ونافس المدرسة النظامية
في بغداد ، والأزهر في مصر .

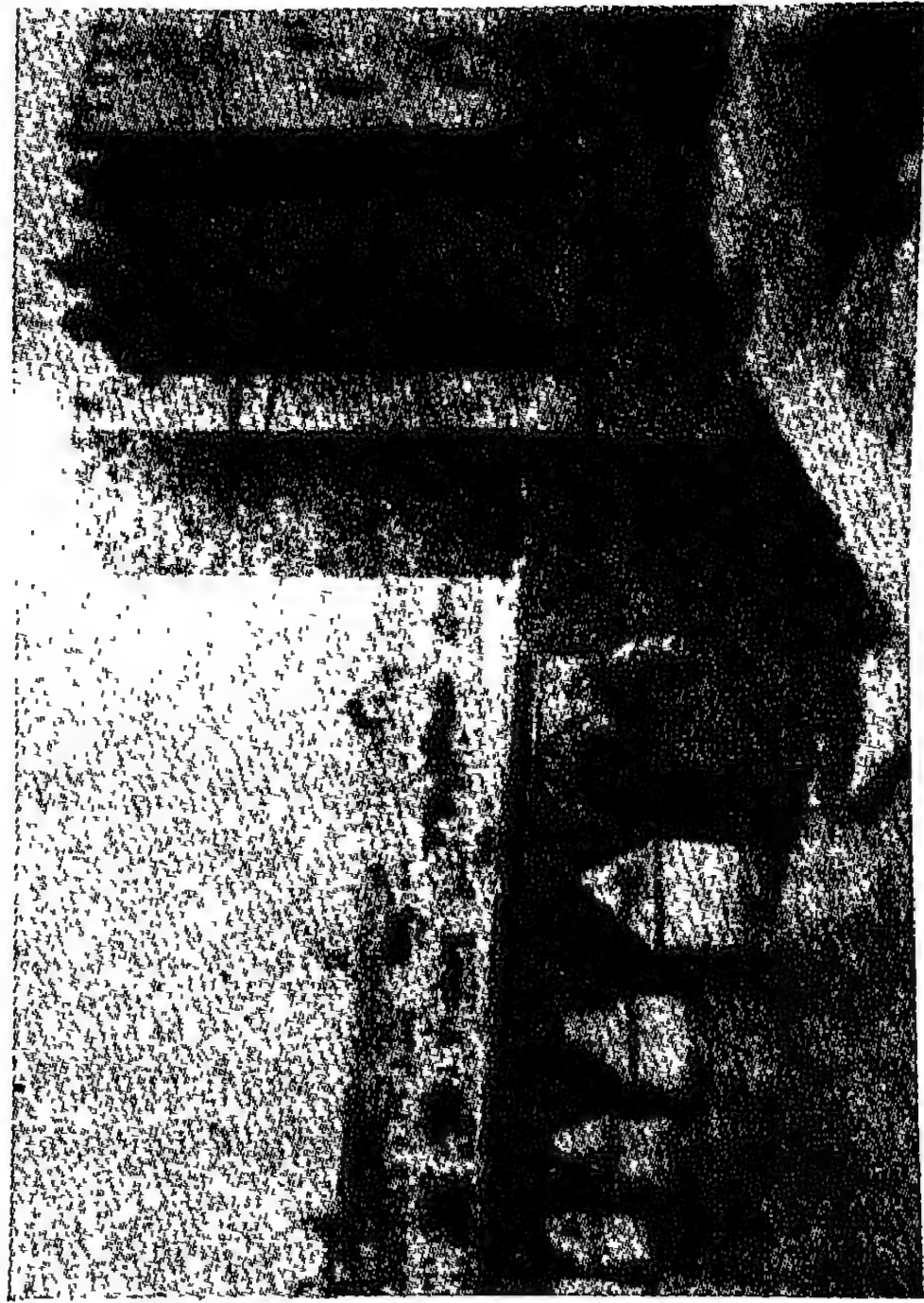
حتى إذا ما حلت سنة أربع وثلاثين وستمائة من الهجرة =
١٢٣٦ م سقطت قرطبة في يد فرديناند الثالث (من مسيحي
الشمال في إسبانيا) وبدأ محو معالم الحضارة الإسلامية في الأندلس ،
اتخذت فيه بعض التغيرات المعمارية في مدخله ، وبعض أجزائه ،
وتحول إلى كنيسة ولكنه ما زال يحمل إلى اليوم اسم .

La Mezquita de Cordoba وهي كلمة إسبانية محرفة عن العربية
معناها المسجد .

مسجد الزهراء

حكم عبدالرحمن الناصر (الثالث) الأندلس (من ٣٠٠ إلى ٣٥٠ هجرية) وفي عهده ازدهت قرطبة بسكانها ، فاتخذ لنفسه مدينة بالقرب من قرطبة ، سماها مدينة الزهراء ، ورأى أن يجعلها مكتملة العالم والاحتياجات ، فبنى بها مسجدا ليكون كغيره من المساجد الإسلامية ، مركزا للعلم ، ومجما للعلماء ، ومنارا تشع منه المعارف ، ولكن عظمة الزهراء لم تنس عبد الرحمن قرطبة وجامعها الكبير فكان يؤدي فيه صلاة الجمعة والأعياد .

ورغم أن يد الحدثان قد امتدت إلى هذه المدينة وجعلت منها قطعا متناثرة إلا أن كتب التاريخ ترسم صورة رائعة للمسجد ، وتصف ما كان عليه من جمال معماري ، تتجلى فيه قوة الإبداع التي اتسم بها الفنان المسلم في العمارة والزخرفة ، فجاء هو الآخر آية من آيات الفن .



نهر الوادى الكبير وعليه القنطرة التى اسسها الرومان

كان يعمل في المسجد يوميا ثلاثمائة بناء ، ومائتا نجار ،
وخمسمائة من الصنائع ، والفعلة .

كان طوله من القبلة إلى الصحن سبعة وثلاثين ذراعا ، وعرضه
من الشرق إلى الغرب تسعة وخمسين ذراعا ، كما أقيم فيه منبر
حول مقصورة جميلة .

وكانت أرضيته مفروشة بالرخام ذي اللون الحمري ، كما حلتى
وسطه بناقورة بديعة الصنع .

نهر الوادى الكبير وقنطرة قرطبة

ينبع نهر الوادى الكبير من مرتفعات سيرا مورينا ، ثم يشق
طريقه بعد المنبع بين سلسلتين من الجبال هما سيرا مورينا
Sierra Morena وسيرا نڤادا Sierra Nevada ويبدو
واديه ضيقاً من منبعه حتى مسافة طويلة ، ثم يبدأ فى الاتساع عند
قرطبة حتى يبلغ أقصى اتساعه فى الجزء الجنوبي ، ويصب النهر
فى المحيط الأطلسى جنوبى شبه جزيرة أيبيريا .

وتمثل سهول هذا النهر منطقة من أغنى المناطق الزراعية
فى الأندلس ، وقد وصفه مؤرخو العرب وأدباؤهم ، وصفاً
رائعاً ، وإليك ما قاله الحجارى فى كتابه « المسهب » : « وهو

أحسن الأنهار ، مكتنفا بدياج المروج ، مطرزاً بالأزهار ،
تصدح في جنباته الأطيار ، وتتعمر النواوير ، ويسم النوار «
وقال آخر : « يمر النصف منه إلى مرسية شرقاً ، والنصف إلى
قرطبة وأشبيلية مغرباً ، وهو نهر ساكن في جريانه ، لين
في انصبابه » .

عرفت الأمم التي حكمت الأندلس — كالرومان — مآثرهم
على البلاد ، فعملوا على تنظيم مياهه ، لارتفاع بها في الري ،
فأقاموا عليه السدود والقناطر .

ومن القناطر التي كانت آثارها لا تزال باقية عند فتح
العرب للبلاد ، قنطرة عرفت « بقنطرة الدهر » أو « قنطرة
قرطبة » أو « الجسر » .

وعرف العرب المسلمون بثاقب فكرهم ، وبعيد نظرهم ،
ما لهذا النهر وقنطرتيه من آثار عظيمة في السلم والحرب على
السواء ، فقام السمع بن مالك الخولاني الوالي من قبل الخليفة
الأموي بدمشق — عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه —
بتجديدها على الأكتاف الرومانية القديمة سنة اثنتين ومائة
بعد الهجرة .

ثم قام الخليفة الأموي بالأندلس هشام بن عبدالرحمن

الداخل بتجديدها ، وتدعيمها ، حتى صارت من أعظم الآثار الإسلامية .

كان طولها ثمانين ذراعاً ، وعرضها عشرين ، وارتفاعها ستين ، وكان لها ثمانى عشرة حَنِيقَةً (قوس) ، ويذكر الإدريسي المؤرخ « إنه كان بأسفلها رصيف من الأحجار والعمد البديعة ، وكان على السد ثلاثة أرجاء ، فى كل بيت منها أربعة مطاحن مائية » . كما كان بالطرف الشرقى من هذه القنطرة ، قلعة سماها العرب « القلعة الحرة » لها برجان عظيمان .

ولقد اعتبر العرب هذه القنطرة مفخرة من المفاخر التى تمتاز بها قرطبة عن غيرها من بلاد الأندلس فذكرها الشعراء فى شعرهم عن المدينة ، وما أحسن قول بعضهم إذ قال :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة منهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهاء ثالثة والعلم أعظم شئ وهو رابعها

متنزهات قرطبة

كان لقرطبة خارج نَضِير ، فالأرض مخضرة قد كستها المزروعات المختلفة الأنواع فتبدو كأنها بساط سندس مطرز بالمتعدد اللون من الأزهار ، ومزين بالمتنوع الثمر من الأشجار ،

يتفرق الماء بينها صافياً في مجار أبدعتها يد الخالق القدير .
وكانت هذه الطبيعة البهيجة تغرى سكان قرطبة بالتوجه إليها
للتمتع بجملها ولقضاء فترات من الراحة والاستجمام بها .
ولم يفت خلفاء بني أمية بالآندلس أن ينتفعوا بهذه المسارح
الطبيعية للترويح عن النفس ، وإقامة متزهات ، وقصور فخمة
بها ، تَغْنِيَّ بجملها الشعراء ، وأبدع في وصفها الكتاب .
ولقد كانت النشوة الكاملة تسود قرطبة في أعيادها ،
فتراها متلاثلة بالأنوار ، انتشرت في طرقاتها الأزهار ، وانبعث
من متزهاتها الشَّجْجِيُّ من ألحان الموسيقى ، يملأ أرجاء الفضاء
ويشيع في النفس السعادة والهناء .
ومن المتزهات الأولى التي شاع ذكرها ، وانتشر
بين أرجاء الدنيا صيتها :

مُتَزَه الرصافة :

أنشأ عبد الرحمن الداخل ضاحية بشمال غربي قرطبة أطلق
عليها اسم الرصافة تشبها برصافة دمشق التي كان قد أنشأها
جده هشام ، ثم أقام بها قصراً منيفاً لسكناءه ، وألحق به متزهاً ،
دحيت به الجنان الوارفة الأنيقة والحدائق الغناء البديعة التي نقل

إليها غرائب الغراس ، وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها
من الأقطار ، كالرمان وغيره .

ويروى المؤرخون أن عبد الرحمن كان وفياً لذكريات
صباه ، فأراد أن يرى بمهد ملكه الجديد ما يكون فيه سلوى
وأنسا ، فأمر بأن تغرس في هذا المتنزه نخلة أحضرت من
البادية ، فكان يردد وهو جالس يتفياً ظلها هذه الأيات :

تبدت لنا بين الرصافة نخلة

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهى في التغرّب والنوى

وطول ابتعادى عن بنى وعن أهلى

نشأت بأرض أنت فيه غريبة

فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلى

سقتك غواذى المزن من صوبها الذى

تسح ويستمرى السماكين بالوبل^(١)

(١) الوبل : المطر

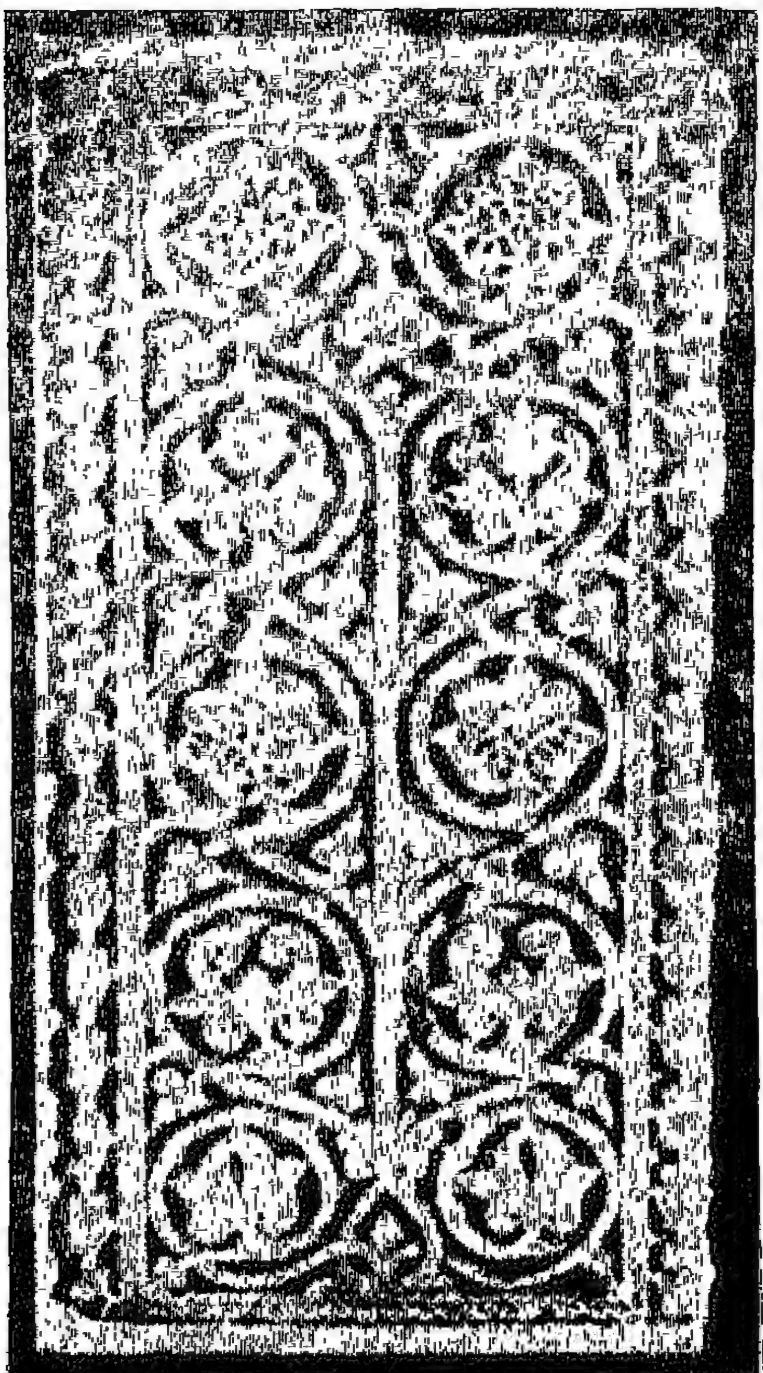
مترنه فخصى السراوق :

كان من المتزهات المشهورة بمجالها ، وحسن تنسيقها ، وبديع
أزهارها « كان مقصودا للفرجة ، يسرح فيه النظر ويتهيج
فيه النفس » ، وقال فيه الشاعر الشريف الأصم القرطبي :
ألا فدعوا ذكر العذيب وبارق^(١)

ولا تسأموا من ذكر فخص السراوق
قعدت عليه اللحظ ما دمت حاضراً
وفكرى فى غيب لمرآه شائق
أيا طيب أيام تقضت بروضة
على لبح غدران وشم حدائق
إذا غرّدت فيها حائم دوحها
تخيّلها الكتاب بين المهارق^(٢)

(١) العذيب وبارق : اسمان لمكانين .

(٢) المهارق : مفرد ما مهرق وهى الصحيفة



زخارف على المرمر وجدت في مدينتي قرطبة والزهراء

قصور قرطبة

ازدهرت قرطبة في العهد الأموي بكثير من مبانيها الفسيحة ، ودورها الواسعة ، وبلغ سكانها حوالى النصف مليون من النسبات ، وأنشأ الخلفاء من أمثال - عبد الرحمن الداخل ، والحكم الأول ، وعبد الرحمن الأوسط ، وعبد الأول ، وعبد الرحمن الناصر ، والحكم المستنصر - فيها أو بالقرب منها قصورا فخمة لسكنائهم ، أو للراحة والاستجمام ، نذكر منها : المجلس الزاهر ، والبهو الكامل ، والقصر المنيف ، وقصر الرصافة ، وقصر دمشق ، وغيرها عدا قصر الإمارة بقرطبة ، ونذكر هنا وصفا لبعض ما ذاعت شهرته من هذه القصور .

قصر الإمارة بقرطبة :

قصر قديم تداوله الملوك السابقون على الفتح الإسلامى ، « وكان فيه من المباني الأولية ، والآثار العجيبة لليونان والروم والقوط ما يعجز عنه الوصف » . وقد اتخذ عبد الرحمن الأول (الداخل) منه مقرا للإمارة ، ومركزا لتصريف شئون دولته ، وأخذ في تجميله والعناية به ، كما عني به من خلفه من الأمراء .

ألقى به عبد الرحمن الرباض الفيحاء ، والبساتين الجميلة ،
وأجرى الماء إلى كل ساحة من ساحاته ، وناحية من نواحيه ،
في قنوات من الرصاص « تؤديها منه إلى المصانع تمثيل متنوعة
الصور ، مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز ، والفضة الخالصة ،
والنحاس المموه ، إلى البحيرات العظيمة ، والبرك البديعة ،
والصهاريج الغريبة ، في أحواض من الرخام حليت بنقوش
جميلة » ، كما كانت به قباب « عالية السمو ، منيفة العلو ،
لم ير الرءون مثلها في مشارق الأرض ومغاربها » .

وعلى الرغم من أن هذا القصر ظل يحظى بعناية حكام
المسلمين بالأندلس حتى أقول نجم قرطبة ، إلا أنهم اتخذوا
قصورا غيره لسكنائهم وراحتهم ، وإليك وصف بعض القصور
الأخرى :

قصر الرصافة :

سبق أن ذكرنا أن عبد الرحمن الداخل أنشأ ضاحية
شمالي غربي قرطبة ، عرفت بالرصافة ، وأقام بها قصرا فخما
لسكناء أكثر أوقاته ، وألقى به المتنزه السابق وصفه .

قصر الدمشقي :

كان هذا القصر من القصور الجميلة ، التي أبدع بناؤها ،
ونمتت ساحاتها وأفنيتها ، وكان يقوم على أعمدة من الرخام .
وقد اتخذها أمراء الأندلس مكانا للتسلية ، ومجالا للترفيه ،
محاكين به قصر أجدادهم السابق بدمشق ، وقد أطيب الشعراء
في وصفه ، والتغنى بجماله وحسنه ، وفضلوه على كل القصور ،
وكانت ثماره اليانعة ، ووروده وأزهاره التي تنشر أريجها فتملاً
النسيمات بما يشرح الصدور ، ويزيل الهموم من النفوس ،
محركاً لمشاعرهم ، فانطلقت أشعارهم تبين ما كان يتميز به هذا
القصر من منظر بديع ، وماء جار ، قد وصفه ابن عمار بقوله :

كل قصر بعد الدمشق يذم
فيه طاب ألجنى ولد المَشَمَّ
منظر رائق وماء نَمِيرٌ
وثرى طائر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عندي
عنبر أشهب ومسك أحمر^(١)

(١) أحمر : أسود .

قصر الروضة :

فى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة من الهجرة اقتدى عبدالرحمن الناصر بأجداده ، فاختار موضعاً على بعض مرتفعات سيرامورينا الشرقية على نهر الوادى الكبير ، إلى الشمال الغربى من موضع الزهراء التى أنشأها بعد ذلك بسنة ، وأقام قصراً له عرف بقصر الروضة أو قصر الزهراء .

ولقد ذاع ذكر هذا القصر ، فأطنب المؤرخون فى وصفه وما كان عليه من فخامة وجمال تثير الدهشة ، وهانذا أسطر بعضاً مما قاله المؤرخون العرب فيه : إن حيطان هذا القصر كانت من الرخام السميك ، ومصفحة بالواح لازوردية ذهبية ، وإن قرامده كانت من الذهب والفضة ، وكانت قبابه تقوم على ثلاثمائة وأربعة آلاف عمود من أنواع الرخام المنقوش نقشا متساوياً ، « وكانت فى ردهاته عيون ماء عذب ، تنضب وتغيب فى أحواض من الرخام الأبيض واليصب مختلفة الأشكال » .

ومن العجائب التى كانت بهذا القصر ، بركة بها أوزة من ذهب معلق فى رأسها ، لؤلؤة كبيرة ، وهذه اللؤلؤة كانت هدية من القيصر ليون امبراطور القسطنطينية إلى الخليفة . « وصهرىج

عظيم مملوء بالزئبق ، فإذا أراد الخليفة أن يفرع أحدا من أهل مجلسه أو مأ إلى أحد حراسه ليحرك الزئبق ، فتظهر في المجلس كلسان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب ، حتى يخيّل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم ، مادام الزئبق يتحرك»

ومما كان يثير العجب به : حوض منقوس بصور الإنسان ، جعل عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدرّ النفيس العالى ، مما عمل بدار الصناعة بقرطبة ، يخرج الماء من أفواهها . . وكذلك الأبواب التى انعقدت فى حنايا من العاج ، والأبنوس المرصع بالذهب والجواهر ، والتى كانت تقوم على ساريات من الرخام الملون ، والبللور الصافى ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب ، فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار .

وكانت تحيط بهذا القصر حدائق واسعة فى وسطها قبة للخليفة معدة لاستراحته بعد القنص ، تقوم على أعمدة رخامية ذات تيجان مذهبة .

وقد بلغ من اتساع هذا القصر أنه كان يحوى أربعائة حجرة ، وأجنحة يأوى إليها آلاف الحراس والعبيد .

ضواحي قرطبة

بلغت أرباض قرطبة نيفا وعشرين ربضا ، وكان لكل ربض أسواقه وحوائيته ومسجده ، وقد اتخذ الخلفاء لقرطبة ضواحي ، أنشأوا بها قصورا للراحة والسكنى ، ومن أجل هذه الضواحي وأعظمها شهرة ضاحيتا الزهراء والزاهرة ، اللتان لم يبق الزمان من معالمهما شيئا ، اللهم إلا ما كشفت عنه الحفريات - التي بدأت منذ سنة ١٩١٠ م وما بعدها - من بقايا الزهراء .

وإليك الحديث عما كانت عليه الزهراء والزاهرة من نفخامة وعظمة ، يجلان عن الوصف . ويشيران الدهشة ، ويدفعان بالإعجاب إلى درجة السمو .

(١) الزهراء :

لما استفحل أمر عبد الرحمن الثالث (الناصر) واستتببت له الأمور في جميع أنحاء الأندلس ، تطلع إلى تشييد القصور ، والمباني الفخمة ، سالكا مسلك من سبقه من أجداده سواء منهم الأندلسيون أو الشاميون .

ففي سنة خمس وعشرين وثلاثمائة من الهجرة بنى ضاحية
في الشمال الغربي من قرطبة وعلى بعد ثلاثة أميال منها على جبل
يسمى جبل العروس (مرتفعات سيرا مورينا) ، واستدعى لهذا
الأمر المهرة من المهندسين والبنائين من كل صوب وحذب ،
فوفدوا عليه من بغداد والقسطنطينية وغيرها .

سبب البناء :

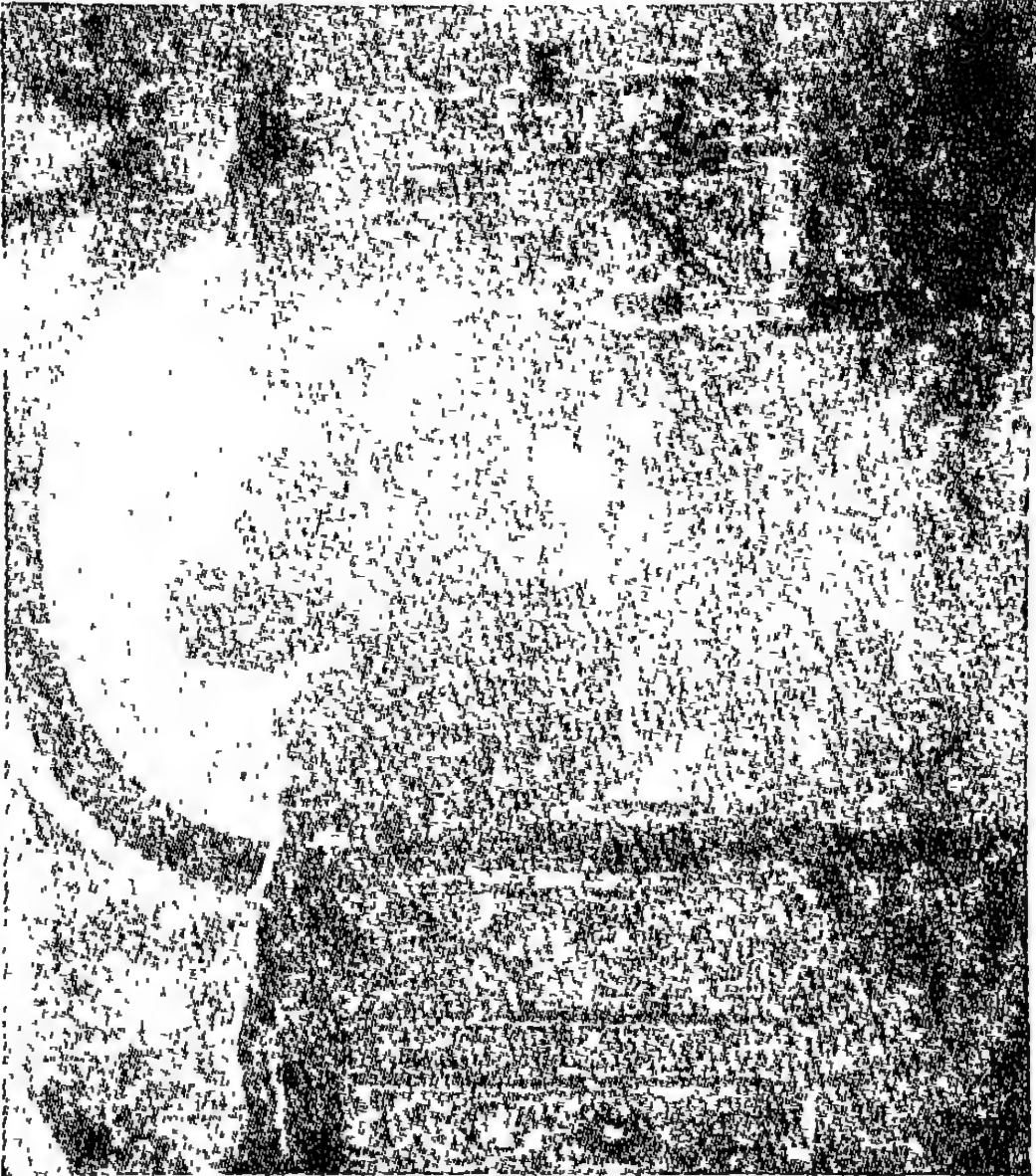
يذكر المؤرخون أن الناصر كانت له شريعة ماتت عن
أموال كثيرة أوصت بها لفكاك أسرى المسلمين ، فطلب
الناصر أسيرا يبلد الفرنج فلم يوجد فشكر الله على ذلك .
فقال له جاريته الزهراء وكانت أثيرة عنده ، « اشتيت سيدي
لو بنيت لي مدينة تسميها باسمي وتكون خاصة لي » . فما كان
منه إلا أن لي طلبها وميت المدينة الزهراء .

هذا ما يذكره بعض المؤرخين في سبب البناء ، ويرى البعض
الآخر ، أن الناصر لم يكن من الإسفاف بحيث ينفق هذه
الأموال الطائلة على بناء ضاحية كهذه نزولا على رغبة جارية
من جواريه - وقد قدر المؤرخون أن الناصر خصص ما يقرب
من ثلث خراج دولة الأندلس للإففاق على هذه الضاحية .

ويرى الدكتور حسن إبراهيم حسن « أن عبدالرحمن
الناصر ولى بعد فترة طويلة انتابها الضعف ، فلما وطد دعائم
ملكه ، ووجد بلاد الأندلس ، وأصبح خليفة للمسلمين ، فكر
فى بناء مدينة يتخذها حاضرة لخلافته ، مقتديا فى ذلك بأبى
جعفر النصور حين بنى بغداد ، وعبيد الله المهدي حين بنى
المهديّة ... » وغيره من الخلفاء الذين اختطوا المدن وعمروها .
كانت هذه المدينة متدرجة البناء ، وتتكون من ثلاثة أقسام ،
لكل قسم منها سور ، وكان بالقسم الأول القصور ،
وبالأوسط البساتين والرياض ، وبالثالث الدور والمسجد .
تأنق الناصر فى بنائها ، وبالع فى زخرفتها ، وجلب إليها الرخام
المختلف الألوان ؛ من مجزع ووردى وأخضر ، من بلاد
الأندلس ، وبعض مدن إفريقيا ، ومدينة القسطنطينية ، كما ورد
بعضه هدية من الملوك والأمراء ، وبلغت الأعمدة التى استعملت
فى البناء حوالى الأربعة آلاف عمود ، كما بلغت أبوابها حوالى
الخمسة عشر بابا .

العمال :

وكان يعمل فى بنائها يوميا عشرة آلاف عامل ، وخمسمائة و ألف



عقد من بقايا الزمراء

دابة من دواب الحمل ، وظل العمل فيها جاريا أربعين سنة ،
شملت حكمي الناصر وابنه الحكم المستنصر .

ويكمل المؤرخون قصة الجارية الزهراء مع مولاهما
عبد الرحمن الناصر حينما نزلت بها بعد إتمامها فيقولون : « إنها
قعدت في مجلسها ونظرت إلى بياض المدينة وحسنها في حجر
ذلك الجبل الأسود فقالت : « سيدى ! ألا ترى إلى حسن هذه
الجارية الحسناء في حجر ذلك الزنجى ؟ » وهنا نرى في الأمر
الذى سيصدره عبد الرحمن كما يصوره المؤرخون تسرع المحبين
في إرضاء أحبائهم ، فيأمر « بزوال ذلك الجبل » فقال بعض
جلسائه « أعيد أمير المؤمنين أن يخطر له ما يشين العقل سماعه ؛
لو اجتمع الخلق ما زالوه حفرا ولا قطعا ، ولا يزيله إلا من
خلقه » وحينئذ عدل الناصر عن رأيه الأول وأمر بأن يقطع
شجره ويغرس بأشجار التين واللوز ، ولم يكن منظرا أحسن
منه ، ولا سيما في زمان الأزهار وتفتح الأشجار .

واتخذ الناصر بها قصره السابق ذكره وهو « دار
الروضة » وجعل الزهراء دارا لنزله ، وكرسيا للملك ، وأنشأ
فيها القصور الفخمة ، والبساتين الأنيقة ، وخصصت بها للوحوش
محلات فسيحة الفناء ، متباعدة السياج ، كما عملت بها مسارح



حررة وجدت في بقايا مدينة الزهراء

للطيور مظلة بالشباك ، وأقيمت بها دور للصناعة ، كصناعة
آلات الحرب ، والحلى وغيرها من الحرف .

توصيل المياه إلى الزهراء :

رأى الناصر أن ماء نهر الوادى الكبير - الذى كان يقع
عليه كل من قرطبة والزهراء - يصبح غير صالح للشرب عند
انخفاضه ، فأراد أن ييسر للمدينة الجديدة الماء الصالح طيلة أيام
السنة ، فاحتفر قناة من نهر الوادى الكبير تمر بالجبل ، كان
طولها ثمانين كيلومترا ، تمت سنة تسع وعشرين وثلاثمائة
من الهجرة ولا تزال آثارها باقية .

ولقد أطنب المؤرخون والرحالة « فى وصف الزهراء ،
وجدوا لها المتدفقة ، وبساتينها النضرة ، ومبانيها الفخمة ،
وقصورها الجميلة ، والوظفين ، ورجال البلاط ، وتشكيلات
غلمان الصقالة الذين يغدون ويروحون فى شوارعها الواسعة ،
بسراويلهم الحريرية الخالصة ، والوشاة بالذهب والفضة ،
وجماعة القضاة ، والفقهاء ، والشعراء ، الذين يسرون فى جد
ورزانة فى ردهات القصر الفخمة ، وأبهائه الفسيحة » .

وأعطوا للأجيال المتعاقبة صورة حية ، لحالة المدينة الجديدة ،



زخرفة على عقد من بقايا الزهراء

وما كانت عليه من جمال وعمران وحياة ، كما تغنى الشعراء
بذكرها وحسن رونقها .

ومن أحسن ما قاله شاعر فيها قول الوزير ابن زيدون
من قصيدة طويلة يحنُّ فيها إلى مجالس قرطبة وضواحيها ،
بعد أن قلب له الزمن ظهر المجن ، وأبدله بالعز بؤسا وبالسلطان
ذلا وفقرا :

ألا هلْ إلى الزهراء أوبةٌ نازِح
تَقْضِي تنائِيهمْ ————— مدامعه نَزْحا
مقاصير ملك أشرقت جنبا تهمْ —————
فحلنا العشاء الجون^(١) أثناءها صُبْحا
يمثل قرطِينهمْ ————— لى الوهم جهرة
فُقِبَتْهَا ، فالكوكبَ الرَّحْب ، فالسَّطْحا
محل ارتياح يذكر الخلد طيْبُه
إذا عزَّ أن يَصْدَى^(٢) الفتى فيه أو يَضْحَى

(١) الجون : الأسود .

(٢) يَمْطَش .

هناك الجمام^(١) الزرق^(٢) تندى حفاقها^(٣)

ظلال^(٤) عهدت^(٥) الدهر فيها فتى سمحا

تعوضت من شدو القيان خلاقها

صدى فلوات قد أطار الكرى ضبحا^(٦)

إن هذا العمل الذي شهد لأمويي الأندلس بالبراعة في الهندسة والمعمار والفنون بمختلف أنواعها ، وتلك الأموال الطائلة التي أنفقت بسخاء على بنائها لحير دليل وأسطع برهان على ما وصلت إليه بلاد الأندلس من عز ، وثناء أيام الناصر . على أننا لا ننسى أن نذكر في هذا المقام ذكر حملة المعارضة التي قادها فقيه ورجل اشتهر بالورع والتقوى ، هو منذر ابن سعيد البلوطي الذي ولاء الناصر إمامة الصلاة في مسجد قرطبة ، والزهاء بعد بناء مسجدها ، فلم يخف قوة السلطان ، ولم يجبن عن قول الحق ، فانتقد تصرف الخليفة علنا متهما إياه بأنه بذل الأموال الضخمة في بناء المدينة ، مما شغله عن مباشرة أمور الدولة .

(١) جمع حمة وهو اجتماع الماء وغزارته . (٢) الجوانب .

(٣) الضبح هو صوت الخيل ، وهنا استعماله مستعارا للأصوات الأخرى .

انهيار الزهراء :

على الرغم من شهرة الزهراء التي طبقت الآفاق ، وسرت في الخافقين رافعة علم الثروة الفنية الضخمة على يد الفنانين العرب في أبنيتها وزخارفها ، وأبهرتها وعلى الرغم من توالى العناية بها وخاصة في عهدي الناصر ومن بعده ابنه الحكم ، فإنها لم تعمر طويلاً ، بل بدأ الذبول يمشى إليها ، والخراب يطرق أبوابها شيئاً فشيئاً ، حتى دكت معالمها في عهد محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر الذي خلع الخليفة المؤيد بن الحكم المستنصر سنة تسع وتسعين وثلاثمائة هجرية ، وخرّب الزهراء وعاد إلى قرطبة متخذاً إياها داراً لإمارته ، وهكذا اندثرت معالمها ، وصار الناس لا يعلمون من أمرها شيئاً ، اللهم إلا ما تحويه بطون الكتب ، وظلت أنقاضها تبكي عزها والذهب من يوم أن امتدت إليها أيدي المعتدين حتى سنة ١٩١٠ م فتوالت الحفائر الأثرية تكشف عن جمالها المطوى أو تاريخها المعلوم .

(ب) الزاهرة :

لم يقتصر بناء المدن وتشيد الأبنية والقصور على الأمراء

والخلفاء ، بل قام به أيضا ذوو الحول والطول ، والسلطان ،
عن دانت لهم الدنيا ، وقبضوا على أعنة السلطة والحكم .
فهاهو ذا الحاجب المنصور بن أبي عامر الذي استفحل
أمره ، وذاع صيته ، وجمع السلطة في يده ، وأصبح صاحب
الكلمة النافذة في الأندلس - بعد أن حبر على الخليفة الأموي
هشام - تمت نفسه إلى ما كانت تسمو إليه نفوس الملوك والخلفاء
من بناء مدن ، وبقاع ، تحمل مع سير الزمان أسماءهم ، وتبقى
مع مرور الأيام تشيد بذكرهم ، فارتاد موصفا في سنة ثمان
وستين وثلاثمائة هجرية شرقى قرطبة ، وقام ببناء مدينة مماها
« الزاهرة » ، واستفرق بناؤها حوالى السنتين ، وشيد لنفسه
بها قصرا فخما انتقل إليه سنة سبعين وثلاثمائة ، واتخذ بها
الدواوين ، والأعمال ، وقامت بها الأسواق ، واتسعت بها
المرافق والأرزاq ، وأقطع ما حولها لوزرائه ، وكتابه ،
وخاصته وحجابه وقواده ، فابتنوا بها الدور الفخمة ، وأنشأوا
بها البساتين النضرة ، واتسع البناء حتى اتصلت أرباضها بأرباض
قرطبة ، وقد ملأها المنصور بجميع أمتعته ، وأسلحته ، وأمواله .
ويقول القرطبي . . واشتد ملك محمد بن أبي عامر منذ نزل
قصر الزاهرة ، وتوسع مع الأيام في تشييد أبنيتها ، حتى كملت

أحسن كمال ، وجاءت في نهاية الجمال ، نقاوة بناء ، وسعة فناء ،
واعتدال هواء رق أديمه ، وصقالة أجوَّ اعتل نسيمه ونضرة
بستان ، وبهجة للنفوس فيها افتنان ، وما أحسن قول صاعد
اللغوى البغدادى حين يمدح المنصور ، ويذكر ما فى الزاهرة
من حسن وجمال فى القصيدة التالية :

يأيها الملك المنصور من يَمَنِ
والمُبْتَدِئِ نَسَباً غَـيَرِ الذى انتسبا
بغزوة فى قلوبِ السَّرِّكِ رَائِعَةٍ
بين المنايا تُنَاغِي (١) الشُّمْرِ (٢) والقُضْبَا (٣)

أما ترى العينَ تجرى فوق مرمرها
زهوا فتُجْرِى على أحفافها (٤) الطربا
أَجْرَيْتَهَا فَطَمًا (٥) الزاهى بِجَرَيْتِهَا
كما طموتُ فُسِدَتْ العُجْمُ والعربا

(١) ناغام : حادثه وناجاه وكله بما يهواه .

(٢) الرماح . (٣) السيوف .
(٤) جوانبها . (٥) علا وارتفع .

تخال فيه جنود الماء رافلة
مُستلماتٍ تريك الدرع واليلباً^(١)
تمحفها من فنون الأيك زاهرة
قد أورقت فضةً وأورقت ذهباً
بديعةُ الملك ما ينفكُ ناظرها
يتلو على السمع منها آية عجبا
لا يحسن الدهر أن يُنشى لها مثلاً
ولو تعنت فيها نفسه طلبها
وأنشأ النصور بالقرب من الزاهرة ضاحية صغيرة أقام بها
قصوراً لراحته وقد عرفت باسم « النية العامرية » .
ويذكر المؤرخون أن الشاعر أبو الطرف بن أبي الحُبَاب
دخل على النصور يوماً في أحد قصورها ... « والروض قد
تفتحت أنواره وتوشحت أنجاده وأغواره ... » فرأى ثلاث
سوسنات ، ثنتان منها قد تفتحا وواحدة لم تفتح فأوحى إليه
منظرها بالقصيدة التالية :

(١) اليلب : الترس .

لا يومَ كالיום في أيامك الأول
 بالعامرية ذات الماء والظلل
 هواؤها في جميع الدهر معتدل
 طيبا وإن حلّ فصلٌ غيرُ معتدل
 ما إن يبالي الذي يحتملُ ساحتها
 بالسعد ألا تحلّ الشمسُ بالحمل^(١)
 كأنما غرست في ساعةٍ وبدا السو
 سان من حينه فيها على عجل
 أبدت ثلاثا من السوسان مائلةً
 أعناقهن من الإعياء والكسل
 فبعض نوارها للبعض ينفتح
 والبعض منغلق عنهن في تغلُّ
 كأنما راحة ضمت أناملها
 من بعد ما ملئت من جودك الخضل^(٢)

(١) يقصد فصل الربيع .

(٢) شبه جود المنصور بأبت خضل أى كثرت أوراقه .

وأختها بسطت منها أناملها

ترجو نذاك كما عودتها فصل

ويسوقنا الحديث عن العامرية إلى ذكر مناظرة طريفة
حدثت في حضرة الحاجب المنصور بين أديبين هما ابن العريف
النحوي وصاعد اللغوي - البغدادي ، فقام ابن العريف ينشد
مخاطبا المنصور من آيات :

قالعامرية تزُهي على جميع المباني
وأنت فيها كسيف^(١) قد حلّ في غمدان^(٢)

فقام صاعد فقال : « أسعد الله تعالى الحاجب الأجلّ ،
ويمكن سلطانه ، هذا الشعر الذي قد أعدّه وروّى فيه أقدر أن
أقول أحسن منه ارتجالا ، فقال له المنصور . قل ليظهر صدق
دعواك ، فجعل يقول من غير فكرة طويلة » :

ياأيها الحاجب المعتلى على كيوان
ومَن به قد تناهى فخارُ كل يمان

(١) يقصد سيف بن ذي يزن ملك اليمن .

(٢) قصر معروف باليمن .

العامة أخت كجنة رضوان
فريدة لفريد ما بين أهل الزمان

هم مرّ في الشعر إلى أن قال في وصفها :

والطير يخطب شكرا على ذرا الأغصان
والقضب^(١) باتف سكرًا بميس القضب
والروض يفتّر زهواً عن ميسم الأقحوان
والرجس العض يرنو بوجنة النعمان
وراحة الريح تمتأ^(٢) رُ نفحة الريحان
فدّم مدى الدهر فيها في غبطة وأمان

فاستحسن المنصور ارتجاله ، وقال لابن العريف : مالك
فائدة في مناقضة من هذا ارتجاله ، فكيف تكون رويته ؛
نقال ابن العريف : إنما أنطقه وقرب عليه المأخذ إحسانك ،
فقال له صاعد : فنخرج من هذا أن قلة إحسانه لك أسكتتك
وبعدت عليك المأخذ ! ! فضحك المنصور وقال : غير هذه
المنازعة أليق بأدبكما .

(١) القضب كل ثمرة طالت وسبّطت أغصانها .

(٢) جعل ما يعلق بالريح من طيب رائحة الريحان جلبا لها .

زوال الزاهرة :

« لم تعمر الزاهرة طويلا ، فقد تنبأ لها المنصور بالخراب والدمار » ، ويقص علينا المؤرخون أن ابن أبي عامر كان في قصره يوما . . . فتأمل . . . ونظر إلى مياهه المتدفقة ، وأنصت إلى طيره المغرد ، وملاً عينه من جمال منظره ، وحسن رواقه ، والتفت في الزاهرة من اليمين إلى الشمال فتجهم وجهه ، وانحدر دمه وقال :

« ويل لك يا زاهرة ! فليت شعري من الخائن الذي يكون خرابك على يديه عن قريب » فقال بعض جلسائه من خاصته « ما هذا الكلام الذي مسمعناه من مولانا قط ! وما هذا الفكر الرديء ! الذي لا يليق بمثله شغل البال » فرد قائلاً « والله لترون ما قلت ، وكأني بمحاسن الزاهرة قد محيت ، وبخزائنها قد نهبت ، وبساحتها قد أضرمت بنار الفتنة وألهمت » .
ولقد تحققت نبوءة المنصور ، ففي سنة أربعمئة تقريباً من الهجرة ، دكّ محمد الثاني الخليفة الأموي هذه المدينة الجميلة حين دك الزهراء .

وهكذا عجل بنهايتها فأصبحت في خبركان ، ونفق البوم في جنباتها ، بعد أن كانت حديث الناس ، ومقصد القاصدين ، وكعبة الوافدين ، ومعقد آمال المؤمنين ، زهاء ثلاثين عاماً .

الثقافة

كانت القاهرة وبغداد والإسكندرية قد حملت كل واحدة مشعل الثقافة والنور في الشرق ، وأصبحت كل مدينة من هذه المدن مركز إشعاع للعلوم والحضارة الإنسانية « فإن الشقيقة قرطبة كانت تحمل نفس المشعل في الغرب » واحتلت مركز الصدارة بين دول أوربا وإفريقيا « وغدت هذه العاصمة الغربية موطن رحل العلماء ، وموئل الساعين من طلاب العلم ورواد الثقافة . والباحثين عن المعرفة .

وطبقت شهرة جامعتها ومدارسها ومكتباتها الزاخرة الآفاق.. ونمت فيها العلوم والفنون . . . وبرز العلماء في الفقه والحديث والتفسير ، واللغة والأدب ، والعلوم الرياضية من هندسة وحساب وفلك . ثم في علوم الطب والموسيقى وغير ذلك من العلوم الوثيقة الصلة بحياة الإنسان .

وإذا كانت قرطبة من الناحية الجغرافية تعتبر قطعة من القارة الأوربية ، واعتبرت هي نفسها مستقلة — من الناحية السياسية — عن الشرق منذ أن وطئت قدم عبد الرحمن الداخل أرض

الأندلس إلا أنها كانت وطيدة الصلة به في المجالين : الثقافي والعلمي . ومن يتصفح كتب التواريخ والتراجم الأندلسية يجدها مفعمة بالرحلات إلى بيت الله الحرام ، ثم مقابلة الشيوخ الفضلاء ، والعلماء الأذكياء .

ولم تكن الحواجز السياسية أو الحدود الجغرافية لتقف حجر عثرة دون آماني هؤلاء الأندلسيين الراغبين في المعرفة ، الطامحين إلى علم غيرهم من إخوانهم المشاركة . . . والشرق في نظرهم — كسلمين — مهبط الوحي ومثوى جسد الرسول الكريم .

هذا . ولم تمنع التقاليد السياسية بدورها تدفق العلماء الشرقيين إلى الأندلس يحملون التراث العربي . . نذكر من هؤلاء العلماء على سبيل المثال — لا الحصر — أبو علي البغدادي الفقيه الأديب في زمن الناصر .

وقد كان الأمراء والخلفاء يشجعون العلم والعلماء ، ويجمعونهم من الأقطار . ويفدقون عليهم العطايا والهبات ، مما كان له الأثر الحمود في إقبال العلماء على الدرس والتحصيل ، وتشجيعهم على التأليف والابتكار .

المكتبات :

ورث الأمير الحكم عن أبيه الناصر عرشاً تليداً مؤثلاً ،
واتسم عهد هذا الأمير بالمحبة والهدوء والسلام ، فخدمت فيه
الفتن الخارجية ، وقضى على المنازعات الداخلية . ونعمت البلاد
إبان حكمه بالسكينة والاستقرار ، وكان الأمير الحكم نفسه ينجح
إلى السلم .. ويميل بطبعه إلى العلم . . فكانت هذه الأسباب
جديرة بمخلق البيئة الثقافية والمكتبة الثقافية .

تذكر الروايات أن مكتبة هائلة تكونت في قرطبة على
عهد الأمير الحكم ، يقول أبو محمد بن حزم في وصفها مانصه :
« أخبرني تليد الخصى — وكان على خزاة العلوم والكتب
بدار بني مروان — أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب
أربع وأربعون فهرسة ، وفي كل فهرست عشرون ورقة ليس
فيها إلا أسماء الدواوين » .

وكانت هذه المكتبة تفوق في عظمتها مكتبات القاهرة
وبغداد والإسكندرية بما كانت تحويه من الكتب النادرة . . وبلغ
من حرص الحكم في اقتنائه للكتاب أنه كان يعمل جهده في أن
يظهر الكتاب الحديث في مكتبة قرطبة قبل أن يظهر في
موطن مؤلفه .

لقد ترمى إلى مسامحه أن أبا الفرج الأصفهاني — عالم العراق — ألف كتابه للمسمى « بالأغاني » فبعث إليه سفيراً من سفرائه يحمل ألفاً من الذهب الخالص ثمناً لهذا الكتاب . . . فيُهر المؤلف ، ويؤخذ ، لكرم الخليفة القرطبي ، وسخائه في إعطيته ، ثم يسرع فيرسل إليه بالكتاب مصحوباً بقصيدة يطرى فيها الخليفة الأموي والبيت الأموي .

ومن العجيب أن هذا الأمير لم يكن جَمَّاماً للكتب فحسب .. ولكنه كان مولعاً بالقراءة أشد من ولعه بجمع الكتب ، مشغولاً بالاطلاع شغفه باقتنائها ، ... إنه يقرأ جميع ما جمع من الكتب ، ويعلق عليها بخط يده « ويكتب على كل مؤلف اسم صاحبه وكناه وألقابه . واسم عائلته وقبيلته ، والسنة والكان الذي ولد ومات فيه » وما يستتبع ذلك من قصص وحكايات صادفت حياة المؤلف .

ولقد كانت هذه التعليقات الحكيمة موضع تقدير واستفادة العلماء الذين عاصروه وآتوا بعده ، فاعترفوا له بالعلم وسعة الاطلاع والدقة في التصويب ، وقد جمع بداره من الخذاق في صناعة النسخ ، والمهرة في الضبط ، والإجادة في التجليد الجَمُّ العفير .

مكتبات أخرى .

إذا كان كما يقال : « الناس على دين ملوكهم » ، فإن هواية جمع الكتب واقتنائها كانت متأصلة في نفس الشعب الأندلسي ، حتى صار ذلك عندهم كما يحدثنا المقرئ في كتابه « نفع الطيب » من آلات التعيين والرياسة . حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة ، يحتفل أن تكون في بيته خزانة كتب ، وليس إلا أن يقال : فلان عنده خزانة كتب . والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره ، والكتاب الذي بخط فلان قد حصله وظفر به .

قال الحضرمي : « أقت بقرطبة ، ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب لي بطلبه اعتناء ، إلى أن وقع وهو بخط فصيح ، وتفسير مليح ، وفرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه ، فيرجع إليَّ المنادي بالزيادة إلى أن بلغ فوق حده ، فقلت له يا هذا . . . أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى مايساوي ، قال : فأراني شخصاً عليه لباس رياسة . فدعوت منه وقلت له — أعز الله سيدنا الفقيه — إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده ، قال : فقال لي : لست بفقيه ، ولا أدري مافيه ، ولكني

أقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها ، لآتحميل بها بين أعيان البلد ،
وبقي فيها موضع يساوي هذا الكتاب ، . . فلما رأيته حسن
الخط جيد التجليد استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه . والحمد لله
على ما أنعم به من الرزق فهو كثير .. قال الحضرمي : فأخرجني
وحملني على أن قلت له — نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند
ملك « يعطى الجوز لمن لا أستان له » وأنا الذي أعلم ما في هذا
الكتاب . وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلا ،
وتحول قلة ما يدي بيني وبينه » .

ومن طريف ما يحكي بما هو وثيق الصلة بموضوعنا هذا
ما يروى من أن أبا الوليد بن رشد ، والرئيس أبا بكر بن زهر
قد تناظرا يوما بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب . . فقال
ابن رشد لمناظره ما أدرى ما تقول : غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية
فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها وإن مات بقرطبة
مطرب ، فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية . . ثم قال : وقرطبة
أكثر بلاد الله كتباً .

تجميع الأدباء على البيئـة الثقافية .

لم يكن جمع العلماء من شتى الأقطار . ولا جمع الكتب من

النواحي المتفرقة . . . وتأسيس المكتبات العامة والخاصة مما شغل
الأمراء والخلفاء وعظماء الدولة . . . ولم يكن موقف هؤلاء من
النهضة الثقافية والعلمية والأدبية موقفاً سلبياً ، مقتصرأ على الهبات
والأعطيات وجريل الثوبات . . . بل نرى بعضهم يشارك العلماء
في علمهم كالحكم الآنف الذكر ، ونرى البعض الآخر يشارك
الشعراء في شعرهم ، وفي وجدانهم وإحساسهم ويخلق معهم في
أجوائهم وأحلامهم ، وفي حبهم . . . وقربهم وبعدهم . . . ومن
هؤلاء الأمراء الشعراء :

١ — الأمير عبدالله — وقد ترجم له العلامة دوزي كثيراً
من شعره ، ونقل عنه أنخل جوثالث فالينثيا في كتابه . . . تاريخ
إسبانيا الإسلامية .

٢ — أبو عبد الملك مروان . . . وهو من شعراء بني أمية
البارزين ، وحفيد الخليفة عبد الرحمن الثالث . . . وقد ظل هذا
الأمير رهين السجن ستة عشر عاماً كاملة . . . وحقق ديوانه أستاذ
الاستشراف في إسبانيا المعاصرة السنيور نمارثيا غومث وترجه
إلى الإسبانية .

٣ — المستعين الخليفة الأموي ومن شعره يعارض هارون
الرشيد في قوله مَلِكُ الثَّلَاثِ الْآنَسَاتُ عَنَانِي .

الآيات قوله :

عجبا يهاب الليث حدَّ سناني
وأهاب لحظ فواتر الأجفانِ
وأقارع الأهوال لا متهيبا
منا سوى الإعراض والهجران
وتملك نفسي ثلاثٌ كالدمي
زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواب الظلماء لحن لناظري
من فوق أغصانٍ على كئبان
حاكت فيهن السيلو إلى الهوى
فقضى بسلطانٍ على سلطان
هذي الهلال وتلك بنت المشتري
حسناً، وهذي أخت غصن البان
فأتحن من قاي الحمى وتركني
في عزٍّ ملكي كالأسير العاني
لا تعزلوا ملكا تذلل في الهوى
ذلُّ الهوى عزٌّ وملكٌ ثاني
ما ضرَّ أني عبدهن صباة
وبنو الزمان وهنَّ من عبداي

إن لم أطع فيهن سلطان الهوى

كلّفاً بهنّ فلست من مروان

وقد تلقف المغنون هذه الأبيات ، ووقعت منهم موقع القبول
والحسن ، وغناها المغنون داخل بلاط الخلفاء ، وبين جنّات
قصور الأمراء والعظماء . . وصار أهل الفن يدندنونها ويترنمون
بها طيلة عصور القرون الوسطى ، ثم انتقلت الأغنية بألحانها
إلى دولة البرتغال في القرن التاسع عشر على يد السنيورا
ميتشليس دي فاسكو ثيللوس .

ويقول المقرئ : وكان من أعظم الأسباب في نساء ودولة
المستعين أنه قال الأبيات التالية مستريحاً بها إلى خواصه ، وهي :

حلفت بمن صلّى وصام . وكبرا

لأغمدّها فيمن طغى وتجبّرا

وأبصر دين الله تحيا رسومه

فبدل ما قد كان منه وغيرا

فوا عجبا من عبشمى مُملّك

برغم العوالى والعالى تبريرا

فلو أن أمرى بالخيار . نبذتهم

وحا كتمهم للسيف حُكماً محرّرا

فإِما حياة تستلذ بفقدهم
وإِما حِمَامٌ لا ترى فيه مأزرا

ومن الوزراء الذين عشقوا فن الأدب والشعر :

١ — الوزير أبو الغيرة بن حزم وزير المنصور بن أبي عامر
وهو ابن عم أبي محمد بن حزم الفيلسوف القرطبي .. وقد ذكر
لنا ابن بسام في كتاب « الذخيرة » الكثير من شعره الذي حمل
به علي ابن عمه الفيلسوف ، وقسا عليه فيه قسوة بالغة .. وسيأتي
بعض ذلك في ترجمته .

٢ — عبد الملك بن جهور وزير الخليفة عبدالرحمن الثالث .

٣ — الوزير المصحفي وزير الحكم الثاني ثم وزير
هشام الثاني .

وكلاهما كان ذواقا للأدب محبا للشعر .

ولم يكن الأدب والشعر ومجالس الأُنس قاصرا على الرجل
دون المرأة فقد تأرج الجوّ الثقافي القرطبي بأريج المرأة ...
وظهرت في الآفاق القرطبية تنثر عطرها وطيب عرفها ..
ومن هؤلاء النساء الأديبات اللائي ظهرن واشتهر أمرهن
في المحافل القرطبية :

١ — عائشة بنت أحمد التي كانت مربية لولد للنصور ومؤدبة له .

٢ — ومريم ابنة يعقوب أستاذة الشعر والأدب .

٣ — ولادة بنت المستكفي التي ذاع صيتها ، وتغنى بجمالها رجال عصرها وخاصة أبو الوليد أحمد بن زيدون — كما سيأتي ذلك في ترجمتها .

التعليم :

قد تدهش أيها القارئ ويتملكك العجب حينما تعلم أن الأندلس عاشت في تلك العصور البعيدة لا تعرف الأمية ولا تعرفها الأمية .. فالمدارس الابتدائية كانت من الكثرة بحيث استوعبت جميع أفراد أمة الأندلس ، ولم يبق فيها مكان للأمية أمسي بين المسلمين .. فكل مسلم يجيد القراءة ويحسن الكتابة ..

ووثب الحكم المستنصر بشعبه ثقافيا وثبة ممتازة .. فأنشأ من هذه المدارس الابتدائية خمسا وعشرين مدرسة جديدة — وذلك عدا ما كان موجودا بها من هذه المدارس ... أما التعليم العالي — أو ما يعبر عنه في عصورنا الحديثة بالتعليم

الجامعى فكان فى المسجد الجامع الذى كان يعتبر بمثابة الجامعة الحديثة أشهر جامعة فى العالم إذ ذاك . فمسجد قرطبة (حيث كانت تلقى المحاضرات) يتهافت عليه الطلاب من شتى أنحاء البلاد .. ليس فقط من إسبانيا الإسلامية بل من جميع أنحاء العالم الإسلامى والعالم المسيحى على السواء .. وكان يسود الجميع روح المحبة الصادقة والزمانة المخلصة .. وتؤكد الروايات أن من هؤلاء الرواد البابا سلفستر الثانى عشر الذى حج إلى قرطبة أيام أن كان راهباً ... ليتلقى العلم فيها ، وكان بعد ذلك من علماء البابوات وأعظمهم شأنًا .

ومن بين العلماء الأفاضل الذين قاموا على تربية النشء وعكفوا على تعليمه فى العلوم العربية والإسلامية نجد أبا بكر ابن معاوية يأخذ حلقة لتدريس حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبا على القالى العالم البغدady ، وصاحب كتاب « الأمالى » والذى وفد على الأندلس أيام الناصر يحاضر فى التاريخ العربى والآداب العربية .. ثم نجد ابن القوطية أستاذ اللغة والقواعد النحوية .

ويقول الأستاذ چوتثالث فالينثيا نقلا عن العلامة دوزى :
إن المواد التى كانت تدرس فى التعليم (الجامعى) العالى هى كما يلى :

القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وتفسيره ، وشرح الحديث النبوى ، وعلم المواريث ، والفقه وأصول الفقه ، وجميع العلوم التى تتصل بالقرآن كعلم التوحيد ، وقواعد اللغة العربية ، وتاريخ العرب ، ثم النظم والنثر ، والطب والفلسفة ، وعلم النجوم والموسيقى . وكان للتلميذ الذى يأنس الأستاذ منه الكفاية ، ويلحظ فيه القدرة على التدريس ؛ إجازة مكتوبة ، وقد تطورت هذه الظاهرة فى أيامنا المعاصرة إلى الإجازات الأكاديمية الجامعية .

وهمة اللغة :

حينما فتح الله على المسلمين أرض الأندلس طاملوا السكان الأصليين معاملة كريمة ، فأبقوا على كنائسهم وأديرتهم ، وكفلت لهم الدولة حرية العقيدة وحرية تأدية الطقوس والشعائر الدينية حسبما تقتضيه القواعد الكهنوتية .

وقد عرف هؤلاء النصارى فى العصور الوسطى بالمستعربين - وما زالوا يعرفون به حتى اليوم ، وكانت اللاتينية هى اللغة التى يتكلمون بها ويتداولونها فيما بينهم ، ويؤدون بها شعائر دينهم . أما العرب ومن تبعهم فكانت لغتهم هى العربية - لأنها لغة القرآن الكريم من ناحية ، ولغة الحكام الفاتحين من ناحية

أخرى .. وظلت الأمور تسير على هذا النهج ... العربية للعرب
واللاتينية لأهل اللاتين حتى جاء عهد الأمير هشام الأول الذى
خطا خطوة إيجابية فى سبيل توحيد اللغة . وكان مما فعله أن
أصدر منشورا رسميا يحتم فيه ضرورة فرض تعليم اللغة العربية
على المستعربين الذين يشاركون المسلمين فى مدارسهم ...
وبعد ذلك بأمَد قليل أصدر منشورا عاما إلى جميع السكان
أيا كانت دياناتهم بضرورة تعلم اللغة العربية لتكون اللغة
الرسمية - لأنها لغة الأمة الفاتحة الغالبة .

وقد أتت هذه الخطوات الإيجابية ثمراتها المرجوة فى وقت
قصير . فأقبل أبناء الشعب على اختلافهم على اللغة العربية
فما يشبه النهم ، وبرع فيها أبناء اللاتين ، وتفوقوا فى نظم القصيدة
العربية على أبناء الضاد أنفسهم وبلغ بهم الأمر أن صاروا
مولعين بالتراث العربى من شعر ونثر . ونسوا لغتهم اللاتينية
أو كادوا ، مما جعل المطران الفاروا يجأ بالشكوى لانتشار
الثقافة العربية بين شبيبة النصارى - بحيث صار لا يروقه
إلا الشعر العربى ، ولا يتذوقون إلا القصيدة العربية والقصة
العربية ، ولم يعودوا يقرأون إلا كتب المسلمين فى حين أنه كان
من العسير أن يوجد أحد بين أفراد المسيحيين من يحسن كتابة
رسالة إلى صديق أو قريب .

دور المستعربين في الحياة الفكرية :

وقد لعب المتخصصون من هؤلاء المستعربين دورا هاما في الحياة الفكرية والثقافية بحكم معرفتهم للغتين اللاتينية والعربية ، وكانوا أداة اتصال بين إسبانيا المسلمة وإسبانيا المسيحية .. وكانوا النواة الأولى التي أخرجت خبأها في عهد تالية .

فلم يكد يأت عصر الفونسو العاشر الذي استحق بمجدارة لقب « العالم » - في نظر المؤرخين من الإسبان - حتى ازدهرت الحركة العلمية ازدهارا لا نظير له ونشطت حركة الترجمة بين اللغات نشاطا محمودا .. وأقبل العلماء من المسلمين والمسيحيين واليهود على أمهات الكتب الدينية والأدبية والتاريخية والعلمية والفلسفية يترجمونها بأمانة وإخلاص .

وقد عمل الفونسو - العالم - المسيحي على خطة الحكم - العالم - المسلم ، فجلب العلماء وشجعهم كما كان يفعل الحكم ، وشاركهم بنفسه ، واهتم بهم اهتمام بالغاً . . وأقبل على ترجمة كتب التي تحمل بين طياتها نتاج العقل الإسلامي إلى اللغة اللاتينية . وأسس أكثر من مركز ثقافي في كثير من النواحي والجهات ، نذكر من هذه المراكز التي أنشأها الفونسو مدرسة

للترجمة في مدينة مرسية Murcia ثم معهدا لنشر الوعي الثقافي بين طبقات الشعب ، وعهد بالتدريس فيه إلى أساتذة من المسلمين ليدرسوا الطب وغيره من المعارف الإنسانية .

ومنذ أن احتل مدينة طليطلة الفونسو VI السادس سنة ١٠٨٦م صارت البؤرة التي تشع منها الثقافة الإسلامية واليهودية على الثقافة الإسبانية بخاصة والأوربية بعامة . ولا سيما بعد أن هرب إلى طليطلة عدد كبير من اليهود الذين فروا من الأندلس أيام بطش الخليفة عبد المؤمن سلطان الموحدين .

وفي سنة (١١٥٢ - ١١٦٢ م) رأى أسقف طليطلة أهمية إدخال النصوص العربية ضمن الدراسات العربية ، وكان لهذا الصنيع أثره في أوربا كما يفصح عنه Renan .

وفي ظل دون رايغونند وتحت رعايته عملت مجموعة لا بأس بها من العلماء في معهد طليطلة - كترجمين ومؤلفين - وتعرف هذه المدرسة اليوم باسم Colegio de traductores toledanos أي معهد المترجمين في طليطلة .

وأكثر المؤلفات العلمية العربية ترجمت عن طريق هذا المعهد وهي كتب في الرياضة والفلك والطب والكيمياء ، والطبيعة والتاريخ . والتاريخ الطبيعي والميتافيزيقا وعلم النفس والمنطق

والأخلاق والسياسة والأرجانون لأرسططاليس ، وتعليقات
وشروح الفلاسفة العرب مثل الكندي والفارابي وابن سينا
والغزالي وابن باجه وابن رشد ... ونقلوا أيضا كتب اقليدس
وجالينوس وبطليموس وأبيقور مع شروح وتعليقات الخوارزمي
وابن سينا وابن رشد . إلخ ذلك .

ويذكر لنا السنيور جوثالث فالينثيا في كتابه . . تاريخ
الآداب العربية والإسبانية الطليعة الأولى من المترجمين الإسبان
نذكر على سبيل المثال :

١ — دومنجو جوثالث ، وأصله من سيجويا Segovia
وكان يعيش حوالي سنة ١١٨١ .

٢ — دون خوان المسمى بابن داود الإسرائيلي ، وموطنه
طليطلة .

٣ — دون رامون . . وقد اشترك مع دون خوان في ترجمة
بعض النصوص العربية ... ترجمها دون خوان إلى اللغة الدارجة
وترجمها دون رامون إلى اللاتينية كما حدث في كتاب النفس لابن
سينا ، وكتاب الفلسفة للغزالي .

٤ — خيرا ردو دي كريمونا Gerardo de cremona
الطلياني الذي ترجم كتب الفلك والطب .

٥ — ميجل كوتو الإنجليزى ترجم إلى اللاتينية بعض أعمال
ارستطاليس وابن سينا .

ومن الكتب الدينية التى أقبل المترجمون عليها ما يلى :

١ — القرآن الكريم — ترجم إلى اللاتينية فى النصف
الثانى من القرن الثانى عشر تحت رعاية بدرو الفينيرا بلى .

٢ — مزامير داود عليه السلام — ترجمها إلى العربية نظما
حفص القرطبي .

٣ — الأناجيل الأربعة — وقد عثر المستشرق الإسبانى
سافدرا فى سنة ١٨٨٠ م على جزء منه فى كاتدرائية ليون . .
وهناك بعض الوثائق الحية التى تعبر عن مدى تغلغل اللغة العربية
فى نفوسهم ، من ذلك وثيقة محفوظة فى المكتبة الأهلية بمدريد ،
تتضمن على ترجمة القانون المقدس إلى العربية ، وقد قام بترجمتها
القس فسنيو وكان ذلك فى سنة ١٠٤٩ .

ومن الكتب الأدبية — كلية ودمنة والسندباد . . ويؤكد
العلامة ميندس بلايو Mendes playo أن المؤرخين للآداب
الإسبانية يعترفون بأن أمهات الكتب التى عاجلت موضوع القصة
فى الشرق وعبرت إلى أوروبا المسيحية — عن طريق اللغة العربية
ثلاثة كتب هى : كلية ودمنة ، والسندباد . وبرلما وجوزفات .

وكتاب كلية ودمنة ترك في الآداب الإسبانية أثره الواضح ويتجلى ذلك في مؤلفات لوليو ، والكوندى لوكانورا ، ودون خوان مانول ، ومؤلفات سانش دى فرسيال كما هو واضح ، من « كتاب » القطط والأمثال .

وأما السندباد فقد ترجم من العربية إلى الإسبانية بأمر من الأمير دون فديريك شقيق الملك الفونسو الحكيم سنة ١٢٥٣ أى بعد ترجمة كلية ودمنة بستين .. وأول من أضاف اللثام عن هذه الترجمة أما دور دى لوس ريوس .

المقامات :

يذكر الدكتور لطفى عبد البديع في كتابه : « الإسلام في إسبانيا » « أن الكثير من الباحثين قد لاحظوا أوجه الشبه القوى بين المقامات التي وضعها الحريري وبين القصة التي تصور حياة الصعاليك Novela Picaresca . فأبو زيد السروجي بطل المقامات يمكن أن يعد طليعة لبطل القصة التي وضعها الكاتب الإسباني ماثيو ألان ، فكلاهما مثل حي للصعلكة وحياة الأفاقين » .

ألف ليلة وليلة :

يقول الدكتور لطفي : إن هذا الكتاب دخل الأندلس في وقت مبكر ، وانتقل منها إلى إسبانيا المسيحية قبل أن يعرفه الغريون من الترجمة الفرنسية التي وضعها جايان في مطلع القرن الثامن عشر .

وورث الأدب الإسباني بعض القصص الواردة فيه كقصة الجارية « تود » التي وردت في مدونة القونسو الحكيم ، وصاغ منها المسرح الإسباني الخصب « لب دي ثيجا » إحدى مسرحياته . وكذلك يرجع الباحثون بمسرحية « كالدرون دي لباركا » التي عنوانها « الحياة حلم » إلى قصة من قصصه .

ثم يستطرد فيقول : ومما يدل على أن الكتاب كان شائعاً بين الناس في آخره العهود الإسبانية الإسلامية ، أن بعض قصصه قد رواها المورسكيون باللغة الأعجمية التي كانوا يكتبون بها كقصة « قصر الذهب » وما إليها .

وهذه المذهب :

إذا كان الأمويون قد حكموا الأندلس سياسياً ، فإن مالك ابن أنس - إمام دار الهجرة - قد حكمها عن طريق مذهبه . .

وقد أدخل موطأ الذي يعتبر أول كتاب يُجمع في الإسلام بعد القرآن الكريم .. أدخله زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون .

يحكى أنه خرج حاجا إلى بيت الله الحرام مع بعض الشيوخ الأندلسيين أيام هشام بن عبد الرحمن ، فسمعوا من مالك وأعجبوا بفضله وعلمه ، فأحضر زياد معه كتاب « الموطأ » .. وأخذ عنه يحيى بن يحيى الليثي - وكان وجيها عند الأمراء مسموع الكلمة فيهم - وتولى بنفسه نشر هذا المذهب .

وقد شجع الأمراء المروانيون من جانبهم مذهب مالك دون غيره من المذاهب الإسلامية الأخرى التي ظهرت إلى الوجود في القرن الثاني من الهجرة كمذهب أبي حنيفة الذي كان يسود العراق موطن خصومهم السياسيين من بني العباسي . وجاء إشارتهم لمذهب مالك كنتيجة لما طمحوا إليه من الاستقلال السياسي ... فكانوا لا يولون القضاء - وهو أخطر منصب في الدولة بعد الخلافة - إلا من كان على مذهب مالك بن أنس إمام دار الهجرة .. والذي أصبح بمثابة المذهب الرسمي لدولتهم .

وينقل إلينا المقرئ في كتابه « نفح الطيب » والحميدي ، في كتابه « جذوة المقتبس » نقلا عن الفقيه أبي محمد بن حزم في

أسباب انتشار مذهب مالك بالأندلس مانصه : مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان ، مذهب أبي حنيفة بالعراق ، فإنه لما ولي القضاء أبو يوسف — تلميذ أبي حنيفة — كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية ، فكان لا يولى إلا أصحابه والمنتسبين لمذهبه ومذهب مالك عندنا بالأندلس ، فإن يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاة . وكان لا يلى قاض في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس سراع إلى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون أغراضهم به ... على أن يحيى لم يلب قضاء قط ، ولا آجاب إليه ، وكان ذلك زائدا في جلالته عندهم ، وداعيا إلى قبول رأيه فيهم

وإذن فمن الممكن أن يقال : إن الأندلسيين — بعد كل ما تقدم — درجوا على مذهب مالك يدفعهم إليه عاملان قويان العامل الأول هو تشجيع الأمراء الأمويين على التمدد بهذا المذهب حرصاً منهم على الوحدة المذهبية والاستقلال المذهبي بعد استقلالهم السياسى وإنهاء تبعية الأندلس للخلافة الشرقية .. والعامل الثانى أن منصب القضاء — وهو كما ذكرنا — لا يولاه إلا من كان على مذهب مالك .

حقبة عرف الأندلسيون في مستهل حياتهم مذهب الأوزاعي، ولكنهم مالبثوا أن تركوه بعد أن أثنى زياد بن عبد الرحمن على مالك أمام هشام بن عبد الرحمن، وذكر من سعة علمه وفضله وجلالة قدره ما جعله يحمله ويسهر على نشر مذهبه.

وقد عرف بعض الشيوخ الأجلاء من المذاهب الأخرى غير مذهب الأوزاعي، ولكن هذه المعرفة كانت أشبه بسحابة الصيف، فمات كاد ترمي إلا وتنجلي، فتحدث كتب التواريخ أن منذر بن سعيد - كما سيأتي في ترجمته - كان وثيق الصلة بمذهب أهل الاعتزال، وكان يعمل به في خاصته وأهل بيته.. فإذا ما جلس للقضاء والفتيا بين الناس كان لا يفصل بينهم إلا بما يقضى به مذهب مالك ولم يجعل لمذهبه الشخصي أى أثر في حياته الرسمية.

وابن حزم اعتنق في بدء حياته الفقهية مذهب الإمام الشافعي، ولكنه ما لبث أن تركه واعتنق مذهب داود بن علي الظاهري.. وتبنى ابن حزم مذهب داود ووسم به، وانتقلت الظاهرية من المشرق إلى المغرب على يديه ونافع عنها في غير هواة مما أثار عليه علماء عصره.. وأبو عبد الله بن مسرة الذي كان يشتغل بعلم الباطن، وصار له أنصار وأتباع..

وسياتي الحديث مفصلاً عن ابن حزم وابن مسرة عند الحديث عنهما .

القرآن والعلوم الشرعية :

معنى الأندلسيون بالعلوم القرآنية عناية بالغة .. ففي التفسير يعتبر ابن عطية أول فقيه عمل على تنقية الدخيل وإزالة الإسرائيليات الوافدة على التراث الإسلامي من اليهود والنصارى الذين اعتنقوا الدين الإسلامي ، ثم بعد اعتناقهم له تقبّل فقهاء الإسلام ثقافتهم الموروثة بقبول حسن ونية صادقة .. ولكن لم يتنبه إلى هذا الخطر الدخيل على الثقافة الإسلامية إلا أهل الأندلس ، وفي مقدمتهم ابن عطية الذي نسج على منواله أبو عبد الله القرطبي الذي يقول عنه أبو محمد بن حزم « إنه لم يؤلف في الإسلام مثله » .

الحديث :

وأما الحديث فكانت روايته عندهم بمكان عظيم . وأقبل علماؤه على موطأ مالك يشرحونه ويسلقون عليه ويتفقهون بفقهه .. ومن هؤلاء نذكر القاضي أبا الوليد الباجي صاحب

كتاب « المنتقى » في شرح الوطأ .. وقد ذهب فيه مذهب أهل الاجتهاد .. ومنهم أبو الحسن علي بن القطان القرطبي وله في تفسير الفريب ورجال الحديث المصنفات .. ومنهم بقى بن مخلد صاحب المصنف الكبير الذى رتبته على أسماء الصحابة وغيرهم كثير .

النحو :

وأما علم النحو فقد حفظه الأندلسيون مذاهبه كما تحفظ مذاهب الفقه ، والعالم الذى لا يكون متمكنا من هذا العلم بحيث لا تخفى عليه غرائبه وشوارده لا يكون جديرا باحترامهم ، ولا مستحقا للتميز ، ولا سالما من الازدراء ... هذا رغم كثرة الانحراف فى ألسنتهم - سواء عند العامة منهم أو الخاصة - عما تقتضيه قواعد اللغة ، ومن طريف ما يروى القرى عن لحن الأندلسيين « لو أن شخصا من العرب سمع كلام الشلوين إمام النحو وهو يقرأ درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذى فى لسانه » .

الفقه :

وأما الفقه ، فكان من أول العلوم التى شغلت بال الأندلسيين ، فألفوا فيه التواليف المفيدة .. ومن الكتب المعتمدة عندهم

كتاب « التهذيب » للبرادعي السرقسطي ، وكان يطلق على هذا المؤلف اسم « الكتاب » كما يذكر ابن سعيد .
وكان الفقيه عندهم معظم لدى الخاصة والعامة ، يشار إليه ، ويحال عليه ، وينبه قدره وذكره عند الناس ، ويكرم في الجوار كما يكرم في البيع والشراء ، وكان الأندلسيون يطلقون كلمة « فقيه » على من يريدون تعظيمه ، فيسمون الأمير العظيم فقيه .. ويطلقون على الكتاب والنحوي واللغوي فقيه ، لأنها عندهم من أرفع السمات .. ومنصب القاضي يعتبر من المناصب الهامة في الدولة فهو الذي يفصل بين الناس في قضاياهم ، ويقوم بالحكومة في دمائهم . وإليه ترجع رعاية الأيتام والأحباس وإقامة الحدود .

الفلسفة — المنطق :

إن من يتابع تاريخ الحركة الفكرية في الأندلس يبصر أنها لم تكن تسير على نسق موحد بل كانت تخضع عندهم لاعتبارات دينية وسياسية ، وكان الحكم المستنصر صاحب اليد الطولى في بعث الحياة العقلية في الأندلس ، وجمع من العلماء والكتب والمصنفات القديمة ما كاد يضاهي به الخلفاء العباسيين ...

ولم يلبث هذا النشاط الحيوى أن انطفأ شعاعه بعد أن أحرق المنصور كتب القدماء وخاصة ما يتعلق بالمنطق والتنجيم .. وميزها - كما يقول المؤرخون - من الكتب المباحة وأمر بإحراقها وإفسادها ، فأحرق بعضها وهيل عليها التراب والحجارة وغيرت بضروب التغير .. وقد فعل ذلك تقرباً منه إلى العامة .. وفى ذلك يقول المقرئ « وكل العلوم عندهم - أى عند الأندلسيين - لها حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم فإن لها حظاً عظيماً عند الخاصة ، ولا يتظاهر بهما خوف العامة ، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه ، فإن زل فى شبهة رجوه بالحجارة ، أو أحرقوه قبل أن يصل أمرهم إلى السلطان ، وكثيراً ما يأمر ملوكهم إحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت ، وبذلك تقرب المنصور بن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن »

وقد أفضت عملية إحراق الكتب وإتلافها إلى تحول الحركة الفكرية نوعاً ما ، وتوارى المشتغلون بها بعيداً عن الأنظار ... وقد رلبعض هذه الكتب أن تفلت من الدمار الشامل ، ووجدت فى رحاب ملوك الطوائف من أمثال ابن هود صاحب سرقسطة

ما أذكي شعلتها مرة أخرى ، واشتهر في العالم الإسلامي من الفلاسفة ابن باجه الذي له من الكتب والشروح والتعليقات على كتب الأقدمين ما يعتبر نغمة الأمة الإسلامية ، وما أنار السبيل أمام أوربا ، فمن هذه الكتب والشروح شرح كتاب السماع الطبيعي لأرسطوطاليس ، وقول على بعض كتاب الآثار العلوية لأرسطوطاليس ، قول على بعض كتاب الكون والفساد لأرسطوطاليس ، قول على بعض المقالات الأخيرة من كتاب الحيوان لأرسطوطاليس ، قول في ذكر الشوق الطبيعي وماهيته ، كتاب تدير المتوحد ، وكتاب النفس . وغيرها .. وأبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل صاحب أبا يعقوب يوسف المنصور خليفة الموحدين . وهو صاحب الرسالة المشهورة برسالة حي بن يقظان التي قصد من ورائها اظهار ما بين الشريعة الإسلامية والحكمة من اتفاق ... وابن رشد أعظم فلاسفة الإسلام وأشهر من شرح فلسفة أرسطو .. وكان مولده ونشأته بقرطبة فقد ولد في سنة ٥٢٠ في قرطبة ومات بالمغرب سنة ٥٩٥ هـ . وتقلبت به الأحوال بعد أن ترك ثروة إسلامية في العلوم العقلية والفلسفية ما جعل اسمه يبلغ من الشهرة عند الأوربيين مبلغ أرسطاطاليس .. وأول من أدخل فلسفته

إلى أوروبا ميخائيل سكوت سنة ١٢٣٠ . وحذا حذوه هرمان
الألمان ، ولم يأت منتصف القرن الثالث عشر حتى كانت جميع
كتب هذا الفيلسوف قد ترجمت إلى اللغة اللاتينية ، ومن هذا
الطريق - طريق الترجمة - نفذت إلى أوروبا . ومن الممكن
أن يقال إن ابن رشد قد تخصص في تلخيص وشرح كتب
القدامى وخاصة أرسطوطاليس - ثم نراه يبسط آراءه الفلسفية
في كتب المؤلفين المسلمين من أمثال الإمام الغزالي الذي ألف
كتابه المسمى بتهافت الفلاسفة ، فجاء ابن رشد وألف كتابا
رد فيه على الغزالي وسمى كتابه بتهافت التهافت .. وعلى العموم
يمكن أن يقال إن فلسفة ابن رشد تناولت مسائل كثيرة تدرج
من أصل الكائنات إلى اتصال الكون بالخالق وعلاقة الإنسان
بالمادة وخلق العالم . وظلت هذه الفلسفة الرشيدية تلقى صراما
ومقاومة من رجال الإكليروس وخاصة توماس الأكويني
مع أنه كان أكثر الناس تأثرا به إلى أن انتصرت في كلية بادو
بإيطاليا ولم ينتصف القرن الخامس عشر حتى صار ابن رشد
صاحب السلطان المطلق في كلية بادو والمعلم الأكبر دون
منازع .

وقد لاقت الفلسفة الرشيدية مقاومة عنيفة ، فأنشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة عندما خيف ظهورها بسعى تلاميذه ابن رشد وتلاميذه تلامذة خصوصاً في جنوب فرنسا وإيطاليا ، وقد أنشئت هذه المحكمة الغريبة بطلب الراهب توركاند . .

قامت هذه المحكمة بأعمالها الإجرامية حق القيام . ففي مدة ١٨ سنة - من سنة ١٤٨١ إلى ١٤٩٩ - حكمت على ١٠ آلاف ومائتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا ، وعلى ٦ آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير . فشهروا وشنقوا ، وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة فنفذت .

وكانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة « المقدسة » وسيلة واحدة تلك هي أن يحبس المتهم ، وتجري عليه أنواع العذاب المختلفة بآلات التعذيب المتنوعة إلى أن يعترف بما نسب إليه وعند ذلك يصدر الحكم ويعقبه التنفيذ .

قرر مجمع لاثران سنة ١٥٠٢ م أن يعلن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد ، وطقق الدومينيكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر في كلامه شيئاً من الصناعة والعبادة . ولكن ذلك لم يمنع الأمراء وطلاب العلوم من تلمس الوسائل للوصول إلى شيء من كتبه وتحلية العقول ببعض أفكاره .

اشتدت محكمة التفتيش في طلب أولئك المجرمين طلاب العلم
والسعادة إلى كسبه ونيط به كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد
خفاؤها : في المدن . في البعوث . في السراييم ، في الأتفاق .
في المخازن . في المطابخ . في الغابات . في الحقول . فوفت بما كلفت
مع البهجة والسرور اللاتقتين بأدعياء الغيرة على الدين .

وكان من نتيجة هذا العبث والاستهتار بحق الإنسان في
آدميته أن قرر مجمع «لاتران» أن يكون من وسائل الاطلاع
على أفكار الناس الاعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكي
أمام القسيس في الكنيسة (أى الاعتراف بالذنوب طلبا لغفرانها ،
فاذا ذهبت البنت أو الزوجة أو الأخت إلى الكنيسة لتعرف بين
يدى القسيس يوم الأحد ، فيكون مما تسأل عنه عقيدة أيها
أو زوجها أو أخيها ، وما يبدو من لسانه في بيته . وما يظهره في
أعماله بين أهله ، فاذا وجد القسيس متلقى الاعتراف شيئا من
الشبهة في طلب العلم غير المقدس على من يسأل عنه رفع أمره
إلى المحكمة .

وقد أوقعت هذه المحكمة من الرعب في قلوب أهل أوربا
ما خيل لكل من يسمع في ذهنه شيء من نور الفكر إذا نظر
حواله أو التفت وراءه أن رسول الشؤم يتبعه ، إذ أن السلاسل

والأغلال أسبق إلى عنقه ويديه ، حتى قال باغلباديس ما كان
يقوله جميع الناس لذلك العهد : « يقرب من المحال أن يكون
الشخص مسيحياً ويموت على فراشه » .

صناعة الشعر :

لم تكن القصيدة الشعرية إلا ديوانا للعرب يسجلون فيها
أحداثهم ومشاكلهم وقد انتقلت القصيدة مع العرب أيام الفتوح
حتى وصلت معهم إلى أرض الأندلس ، والقصيدة الكلاسيكية كما
عرفها الأقدمون بأنها : كلام مفصل قطعاً متساوية الوزن متحدة
الحرف الأخير ، وتسمى كل قطعة بيتاً ، والحرف الأخير
المتفق روياء ، ويسمى جملة قصيدته . وكل بيت مستقل عما قبله
وبعده ، فيحرص الشاعر على استقلاله ، ويستأنف كلاماً آخر ،
ويستطرد للخروج من فن إلى فن ، ويراعى فيه اتفاق القصيدة
في الوزن حذر الخروج من وزن إلى وزن يقاربه ، وللموازين
شروط وأحكام تضمنها علم العروض ، وهى أوزان مخصوصة
تسمى البحور .

ولما فتح العرب إسبانيا صارت البيئة الأندلسية بمثابة البوثة

التي انصهرت فيها العناصر بعضها مع بعض بحكم قانون التطور والتفاعل للتبادل... استحدث الأندلسيون فنا من الشعر كما يقول ابن خلدون في مقدمته «محمود الموشح» ينظمونه أمشاطاً أمشاطاً، وأغصاناً أغصاناً، يكثر من منها ومن أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد بيتاً واحداً، ويلتزمون قوافي تلك الأغصان وأوزانها، وأكثر ماتنتهى إلى سبعة آيات، ويشتمل كل بيت على أغصان بحسب الأغراض، وينسبون فيها ويمدحون كالفصائد.. والظاهر - فيما أرى - أن تقدم الموسيقى العربية من ناحية ووجود أغنيات شعبية كانت شائعة باللغة الرومانسية من ناحية أخرى كان كلاهما سبباً في خلق هذا اللون الجديد من الشعر في البيئة الأندلسية، وخاصة إذا اعتبرنا أن أهم جزء في الموشح هو الجزء الأخير الذي اصطلح عليه باسم «الخرجة» كان باللغة الرومانسية.. وتقوم من الموشحة مقام المطلع في القصيدة، وأكثر ماتكون «الخرجة» في لغة عامية أو أعجمية أما سائر أجزاء الموشحة فهو باللغة العربية.

ومن العلماء المشتغلين بالدراسات العربية للمستشرق الإسباني خوليان ريبيرا الذي كان أول من ذهب إلى أن للموشحة شعر عربي بنى على أغنية شعبية، ولما كانت نظريته تحتاج إلى برهان

لإثباتها ، فقد وقف الناس منها موقف الحذر ، حتى وقف اشترن
في سنة ١٩٤٨ م على إحدى وعشرين خرجة باللغة الرومانسية
في موشحات عبرية .

وأول من اخترع هذا اللون من الشعر مقدم بن معافر من
شعراء الأمير عبدالله ابن محمد للرواني . وعنه أخذ ابن عبد ربه
صاحب كتاب . . العقد الفريد ، . واستظرفه الناس لسهولة .
وأول من برع فيه عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح ، ثم
جاء في دولة الملتمين الأحمى الطليطلى . ويحيى بن بقی ، وعاصرها
أبو بكر الأبيض وابن باجة الذي يقول :

مالذلي شرب راح	على ربا من الآقاح	لولا هضم الوشاح
إذا أتى في الصباح	أو في الأصيل	أضحى يقول
ماللشمول	لطمت خدى	ولللشمال
هبت فالى	غصن اعتدال	ضمه بردى
بما آباد القلوبا	يمشى لنا مستريا	يا لحظه رد توما
ويا لماء الشنبا	برد غليل	صب عليل
لا يستميل	فيه عن عهدى	ولا يزال
في كل حال	يرجو الوصال	وهو في الصد

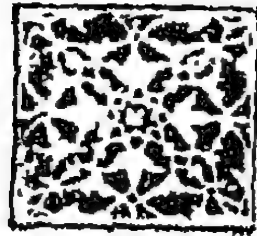
واشتهر من بعدهم ابن شرف الدين ، والرويني ، وابن زهير
الذي يقول :

ما للموله	من سكره لا يفيق	يا له سكران
من غير خمر	ما للكثير المشرق	يتدب الأوطان
هل تستعاد	أيامنا بالخليج	وليالينا
أو تستفاد	من النسيم الأريج	مسك وادينا
أو يكاد	حسن المكان البهيج	أن يحينا
ونهر ظله	دوح عليه أنيق	مورق مينان
والماء يجري	وعايم غريق	من جنى الريحان

ولما شاع التوشيح لسلاسته ، نسجت العامة على منواله ،
ونظموا فيه بلغتهم من غير إعراب ، واستحدثوا فنا آخر مموه
بالزجل ، وجاءوا فيه بالغرائب ، وأول من أبدع فيه ابن قزمان
- وإن قيل قبله - وكانت أزجاله تروى ببغداد أكثر مما تروى
في المغرب ، ومن روائعه وصفه لتمثال أسد من الرخام يصب
الماء من فيه على صفائح مدرجة من الحجر :

وعرين قام على دكان	بحال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان	في غلظ ساق

وفتح فيه بحال إنسان فيه الفواق
وانطلق مجرى على الصفاح ولقى الصباح
وهذه الطريقة الزجاجية هي فن العمارة بالاندلس ،
وهم ينظمونه في سائر البحور الخمسة عشر بالعامية .
هذا - ولنتقل بالقارىء العزيز ونقدم له صفحة عن بعض
الأعلام الذين ازدهرت بهم الثقافة الأندلسية والمجتمع الأندلسي .



منذ بن سعيد

قاضي الجماعة بقرطبة

كان ميلاد منذر سنة ٢٦٥ هـ فتعلم وتادب ورع في العلوم الشرعية واللغوية ، وألف كتباً حجة في العلوم القرآنية والسنة النبوية ، كما ألف في الزهد والتصوف ، ورد على أهل الأهواء والبدع .. وكان رحمه الله - خطيباً بليغاً ، عالماً بالجدل حاذقاً فيه ، شديد المعارضة ، حاضر الجواب ، ثابت الحجة ، « ويقول عنه كتاب التراجم » إنه كان ذا شارة عجيبة ، ومنظر جميل ، وخلق حميد ، وتواضع لأهل الطلب ، وانحطاط إليهم ، وإقبال عليهم . لم يحفظ عليه جور في قضية ، ولا قسم بغير سوية ، ولا ميل لهوى .

وظل منذر رداً من الزمن بعيداً عن مسرح الحياة العامة وأضوائها ، قصياً عن بلاط الخليفة وصحبة السلطان ، لا يعرفه إلا خاصة أصحابه وأوفى خلانه ، وظل هكذا منطوياً على نفسه حتى آتته الظروف السعيدة ، فصعد نجمه ، وظهرت شخصيته

في الآفاق القرطبية .. كان ذلك اليوم المشهود ، يوم أقبل فيه شعراء ملوك الروم يحملون إلى الناصر هدايا الإمبراطور قسطنطين وأخيه ملكا الأمبراطورية الرومانية .. وجلس الناصر على كرسي الخلافة يحف به أعضاء البيت الأموي . وكان المشرف على حفل الاستقبال الأمير الحكم ولي العهد .. وأراد الخطباء والشعراء الثول بين يدي الخليفة العظيم وضيوفه ليشيدوا بذكرك وليتغنوا بفضله ومآثره ، وكان الحكم قد رتب لهذه السباعة المجيدة صديقه الفقيه محمد بن عبد البر الكشكشاني ، وما إن تقدمت خطاه ومثل بين يدي أمير المؤمنين حتى أخذته هيبة الموقف ، وذهب ما كان قد زوَّره في نفسه من كلام وحيل بينه وبين ما كان يريد ، ثم سقط على الأرض مغشيا عليه .. عند ذلك اتجهت الأنظار إلى أبي علي البغدادي إسماعيل بن القاسم القالي (صاحب كتاب الأمل) وكان ضيفا على الخليفة وافدا عليه من العراق . لينقذ الموقف .. غير أنه ما كاد يبتدىء بحمد الله والثناء عليه والصلاة على نبيه - صلى الله عليه وسلم - حتى وقف ساكنا متفكرا .. ولم يستطع إتمام ما بدأ ... ولم يكن حظه من التوفيق بأحسن من حظ سلفه .

فلما رأى منذر بن سعيد ما حدث وكان حاضرا في جملة

من حضر من الفقهاء قام من نفسه وأكمل افتتاحية القالى ،
وانطلق فى بيانه كما ينطلق السهم من الرمية ... فما تلجلج
ولا تلكأ حتى انتهى من خطبته . ولفت بلباقته وحسن تصرفه
نظر الناصر إليه ، مما جعله يقول معلقا على ما حدث .. والله لقد
أحسن ما شاء ، ولئن أخرنى الله بعد ، لأرفعن من ذكره .
واستدعى الناصر ابنه الحكم وأوصاه بأن يضع يده على منذر
ويستخلصه لنفسه ، ويرفع من شأنه فولى قضاء قرطبة بعد وفاة
القاضى محمد بن عيسى سنة ٣٣٩ هـ ولبث قاضيا حتى أدركته الوفاة
سنة ٣٥٥ هـ .

أذكت هذه الحادثة مشاعر منذر فأنشأ يقول :

مقالٌ كحد السيف وسط المحافل

فرقتُ به ما بين حق وبأصل

بقلب ذكى ترمى ججراته

كبارق رعد عند رَعش الأنامل

وقد حدقت حولي عيونُ أخاها

كمثل سهام أثبتت فى المقاتل

لخير إمام كان أو هو كائن
 لمقتبل أو في العصور الأوائل
 ترى الناس أفواجاً يؤمنون بآبائه
 وكلهم ما بين راج وآمل
 وفؤد ملوك الروم وسط فناءه
 مخافة بأسٍ أو رجاء لقائل
 فعش سائماً أقصى حياة مؤملاً
 فأنت رجاء الكل حاف وناعل
 ستحكمها ما بين شرق ومغرب
 إلى درب قسطنطين أو أرض بابل

* * *

كانت تغلب على مندر صفات الزهد والروع ، وكان إذا صعد
 المنبر أو خطب الناس نفذت كلماته إلى قلوبهم ، وفعلت في نفوسهم
 فعل السحر . . . هذا إلى رقة في العبارة ، وقوة في البيان ،
 وتحير للألفاظ ، ومن قوله في بعض خطبه التي كان بها يشير مشاعر
 سامعية : « حتى متى أعظ ولا أتعظ . وأزجر ولا أزدجر ،

آدل على الطريق المستدلين ؟ وأبقى مقياً مع الحائرين ؟ ؟ كلا
 « إن هذا هو البلاء للمبين ». « إن هـى إلا فتنتك تُضل
 بها من تشاء ، وتهدى بها من تشاء » اللهم فرغنى لما
 خلقتنى له ، ولا تشغلنى بما تكفلت به لى ، ولا
 تحرمنى - وأنا أسألك . ولا تعذبى - وأنا أستغفرك يا أرحم
 الراحمين . وقد أكسبته هذه الخلال الحميدة الشجاعة فى القول
 والإخلاص فى العمل ، فلم يكن ليخشى فى الحق لومة لائم ،
 حتى ولو كان الذى عليه الحق قد أوتى من السلطان أعظمه ، ومن
 الجبروت أعزّه . وقد نقلت إلينا الروايات التاريخية فيما روت عنه
 أن الخليفة عبد الرحمن الناصر احتاج إلى شراء دار لإحدى
 نساء الكريعات عليه ، العزيزات لديه ، فاستحسن داراً فى
 الربض الشرقى لقرطبة ، يتصل حمام له غلة واسعة ، وكانت هذه
 الدار لايتام فى حجر القاضى يدعون أولاد زكريا - أخى نجرة ،
 وأرسل الخليفة من قومها له وفقاً لرغبته الخليفة . ثم أرسل إلى
 وصى الأيتام يساومه على بيع ما تحت يده . . . ولكن الوصى
 اعتذر بعدم إبرامه العقد معهم وأن ذلك موكل إلى أمر القاضى ،
 إذ لا يصح بيع ولا شراء إلا بإذنه ومشورته فأرسل الخليفة
 إلى القاضى بعض رساله ليتفاوضوا معه فى بيع هذه الدار . . . فلما

وقف على جليلة الأمر ، وعلم رغبة الخليفة الأكيدة في شراء دار الأيتام هزته عاطفة الإيمان بالله فأنبأ الرسل بما يسائر تعاليم الحنيفية ويتفق مع مصالح الأيتام بالمحافظة على أموالهم وحقوقهم فيقول لهم . . البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه ؛ منها الحاجة . ومنها الوهي الشديد ، ومنها الغبطة ، فأما الحاجة فلا حاجة لهؤلاء الأيتام إلى البيع ، وأما الوهي فليس فيها . وأما الغبطة فهذا مكانها فإن أعطاهم أمير المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع ، وإلا فلا .

ويستمع الرسل إلى مقالة قاضيهم ويحرصوا أشد الحرص على تبليغ ما سمعوا إلى أمير المؤمنين حرفاً حرفاً وكلمة كلمة . . . وعندها يتظاهر الخليفة بالزهد فيها والرغبة عن شرائها . . . ولكن القاضي العادل الذي يخشى أن تتحرك رغبته في شرائها ثانية ، فيلحق الأيتام من الأذى والضرر مما لا يحبه الله ورسوله . ويسرع في أمر وصي الأيتام بهدم الدار وبيع أنقاضها . . . فيفعل هذا ما يأمره به القاضي ويبيع الأنقاض بثمن يربى كثيراً على تقييم رسل السلطان ومقوميه . . .

وحينما وصل إلى مسامع الخليفة ما صنع القاضي عز عليه ما آلت إليه من بوار وخراب . . فأمر بتوقيف الوصي الذي

أكد له أن القاضى هو الذى أمره بهدمها وبيع أنقاضها ، ولم يفعل هو ذلك عن أمره ، ومرة أخرى يبعث الخليفة إلى قاضيه الذى ولاه أمر الفصل بين الناس فيما يعن لهم من مشا كل وأقضية مم يسأله :

— ما الذى حملك على فعلتك ؟ التى فعلت ؟

— إننى يا أمير المؤمنين لم أصنع شيئاً فيه إجحاف بحق الأيتام ولا ضيعت ما ولاك الله عليهم.. فلم آت منكراً من العمل ، ولا وزراً فى الحكم ، وإنما يا أمير المؤمنين أخذت فيها بقول الله تعالى «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا» مقوموك لم يقوموها إلا بكذا ، وبذلك تعلق وهمك ، فقد نض فى أنقاضها أكثر من ذلك ، وبقيت القاعة والحمام فضلا ، ونظر الله تعالى للأيتام .

وما إن يسمع الخليفة هذا الصوت الذى يمتلىء حكمة وعبرة حتى ينصاع إلى قول الحق ، ويثوب إلى رشده ، وسابق إنصافه ولم يركب الشطط ، أو يسرف فى القول . . وإنما ينطق

نطق من استبان له سبيل الهدى والرشاد فيقول : « نحن أولى من
انتقاد إلى الحق ، فجزاك الله تعالى عنا خيرا » .
هذا ومواقف منذر المشابهة تشهد بما كان له من عزة النفس
وكرم الشئائل وخاصة مع من لهم السلطان والحكم .

* * *

ومنذر بن سعيد كثيره من فقهاء عصره يضربون في كل
فن بسهم وافر من المعرفة ... فهم فقهاء ... وهم كتاب ... وأيضاً
فهم شعراء يتذوقون الشعر كما يتذوقه غيرهم من الشعراء ولو أنهم
لم يبلغوا مبلغ من غلبت عليه نحيضة الشعر من الشهرة به والوقوف
عليه . . . ومن النوادر التي إن دلت على شيء فإنما تدل على
مقدار تذوقه للأدب فيحكي عن نفسه ويقول :
أتيت وأبو جعفر النحاس في مجلسه بمصر يعلو في أخبار
الشعراء حيث يقول :

خليلىَّ هل بالشام عينٌ حزينة
تبكي على نجد لعلى أعينها
قد أسلمها الباكون إلا حمامة
مطوقة باتت وبات قرينها
تجأ وبها أخرى على خيزرانة
يكاد يدنئها من الأرض لينها

فقلت له : يا أبا جعفر ، ماذا — أعزك الله تعالى — يأتا
يصنعان ؟ فقال لي : وكيف تقول أنت يا أندلسي ؟ فقلت له :
بانت وبان قرينها — فسكت ، فما زال يستثقلني بعد ذلك حتى منعني
من قراءة كتاب « العين » . .

ومن نوادره التي تدل على سرعة خاطره ، وحدة ذكائه ،
وروحه المرحه ، وتمكنه من الجواب ما يحكي أن بعض الأدباء
كتب إليه :

مسألة جئتك مستفتياً

عنها وأنت العالم المستشار

علام تحمر وجوه الطبّا

وأوجه العشاق فيها اصفرار ؟

فأجابه منذر .

احمر وجه الطّبي إذا لحظه

سيف على العشاق فيه إحورار

واصفر وجه الصب لما نأى

والشمس تبقى للمغيّب اصفرار

ويحكي عن نفسه فيقول : كتبت إلى أبي على البغدادي

أستعير منه كتاباً من « الغريب » .

بحق ديم مُهفّف وصدغه المتعطّف
أبعث إلى بجزء من الغريب المصنّف
فلما وصلت الرقعة إليه قضى حاجتى وأجابنى بقوله :
وحق در تألف بفيك أى تألف
لأبعثن بما قد حوى الغريب المصنّف
ولو بعثت بنفسى إليك ما كنت أسرف

* * *

لم تشغل منذر الحياة العامة ومخالطة الناس كما شغلت غيره ولم
تلهه بحسنها وزخرفتها كما ألهمت غيره وزخرفت له .. ومع أنه
كان كثير الدماثة والفكاهة والتلطف مع الناس إلا أنه إذا أحس
بما يחדش كرامته أو دينه ثارت ثائرتة ، ورد على نفسه بما يصونها
ويحفظ سمعتها .. فإذا نطق نطق بالحق ، وإذا حكم بين الناس
حكم بما أنزل الله ...

كان لمنذر - كما سبقت الإشارة إليه - مذهبان . مذهب خاص
به وبأهله والمقربين منه وهو مذهب أهل الظاهر .. كما تسربت
إلى أفكاره بعض أفكار المذهب السرّي .. ولكن هذا
المذهب الشخصى لم يجعل له أى أثر فى حياته القضائية « وإنما
كان إذا جلس للقضاء وحكم بين الناس حكم بما يتفق مع مذهب

مالك بن أنس الذي ساد الأندلس والغرب . وكان بمثابة المذهب الرسمي للدولة الأموية بالأندلس ومن الكتب النفيسة التي خلفها القاضي منذر « كتاب أحكام القرآن » وكتاب « الناسخ والمنسوخ » وغير ذلك في علم الفقه وعلم الكلام .

محمد بن مسرة القرطبي :

ولد محمد بن مسرة القرطبي عام ٨٨٣ م . وتوفي والده وهو في السابعة عشرة من عمره ، وكان يقطن بظاهر قرطبة ، ويعيش في صومعته بعيداً عن العاصمة وضوضائها وجلبتها .. وكانت له فترة إقامة في مدينة القيروان ، ويعتبره المؤرخون للحركة الثقافية في الأندلس أول رائد للفكر الحر المنطلق ، وأول من عرف بالاشتغال بالفلسفة والمنطق .. وقد أفاض المستشرق الإسباني أسين بلاثيوس في كتابه ابن مسرة Ibn Masarra عن مدى تسرب الآراء الباطنية إليه ، كما أفاض في بيان مدى الانعكاسات الأفلاطونية في مذهبه ومقدار تفاعلها مع العناصر الإسلامية . ومن الممكن أن نجمل آراءه التي ذهب إليها فيما يلي :

١ — إمكان اكتساب النبوة .

٢ — إرجاع تدبير العالم إلى العرش .

٣ — حرية الإنسان في جميع أفعاله .

٤ — عدم إيمانه بعذاب الجحيم .

هذه هي القواعد والتعاليم المسرية التي عشقها بعض رجال الفكر في الأندلس إبان العصور الوسطى ، وصار له تلاميذ يذهبون إلى مذهب إليه ، وأشباع يوقنون بما آمن وأيقين به .. وكان من هؤلاء التلاميذ الأوفياء لمبادئ أستاذهم إسماعيل بن عبد الله الرعيني الذي كان يقطن مدينة المرية Almeria . وكان له أنصار وأشباع يعترفون بإمامته ، ويؤدون إليه الزكاة ... ومما زاد في تعلقهم به وإيمانهم له أنه كان — الرعيني — يتنبأ بأشياء قبل وقوعها فتقع .. ومن مبادئه — التي تعتبر مخالفة لما عليه إجماع الفقهاء — القول بنكاح المتعة .. وهذا المبدأ من أهم الأشياء التي تمسك بها الشيعة الإثنا عشرية في فقهم . ومن هؤلاء التلاميذ محمد بن إبراهيم بن شق الليل الذي كانت له مشاركة في كثير من العلوم وعناية بأصول الديانات . وكان من مبادئه أنه يدين بالرجعة وقد احتفظ لنا ابن حزم في كتابه « الفصل » بهذه الآراء وناقشها ورد عليها ..

كان مصير محمد بن مسرة كمصير كل مفكر حر لا يتقيد بما يتقيد به الفقهاء النصيون الذين يقفون عند الحدود الظاهرة

التي ترميها ألفاظ النصوص وليس هنا مكان شرحها أو الإفاضة فيها - فاتهم بالزندقة أو الإلحاد والمروق عن الدين .. وهي تهمة تقليدية يقلدها دوما مناوئوا الفكر للمفكرين .

وكان هناك من الأسباب والدوافع التي تذكى الإغراء به والوقية لدى أصحاب السلطان والسياسة .

فهناك من الأوضاع الاجتماعية والسياسية ما يكون سبباً في كبت الفكر أو الحجر عليه ، وإن كان هذا الكبت وذاك الحجر ينتهى باتهاء أسبابه . ودوافعه ... فعهد الأمير عبد الله كان يتسم بعدم الاستقرار لخروج الكثيرين من النافرين والمتمردين الذين اصطنعوا الخلافات لأغراض شخصية أو قبلية ، هذا إلى خروج عمر بن حفصون الذي كشف القناع عن عقيدته فارتد عن الإسلام إلى المسيحية بعد أن ظل مدة طويلة يظهر في ثياب إسلامية .

لهذا السبب أو لغيره حرص الأمير على وحدة الصف من الخلافات المذهبية التي ربما قد تبلور وتأخذ شكلاً مذهبياً عداًياً قد لا يتفق مع المصلحة العامة لا للإسلام ولا للمسلمين .

لذلك فكر ابن مسرة في الهجرة عن وطنه واعتزام الحج إلى بيت الله الحرام وخروج مع القافلة ليتغنى مكاناً رحباً وينشد

الهدوء والسلام بعد أن اتهمه في دينه الفقيه أحمد بن خالد الذي كان يتمتع في قرطبة باحترام الخاصة والعامة .

ولما هدأت الأحوال ، وأحس هو من نفسه حيناً إلى وطنه قفل راجعاً إلى قرطبة حيث توجد صومعته ، مواصلاً جهده في إلقاء دروسه ومحاضراته وكانت طريقته في التدريس طريقة بارعة ورائعة .. واستعمل دهاءه وذكاءه في تدريسه لتلاميذه .. فيحكى عنه أنه قسم الطلاب إلى فريقين : فريق عادى يستعمل معه الطريقة السنية المألوفة للناس أجمعين ، وطريقة خاصة يستعملها حيناً يخلو إلى فريق من أحبابه والمخلصين لمذهبه ، وهم الذين يكشف لهم النقاب عن خبيثة نفسه ويبوح لهم بمكنون أمره . ولقد صادف الحظ المدرسة المسرية باعتلاء الحكم الثاني عرش الأندلس الذي يحكى عنه أنه كان واسع الأفق رحب الصدر .. وتمتعت الحياة الثقافية في عهده بجزية بالغة .. واختص هو بنفسه المدرسة المسرية وسمح لأفرادها بالظهور على المسرح دون وجل أو خشية ، وقد كان من تلامذة هذه المدرسة الأدباء والشعراء والمؤرخون والكتاب والقضاة وعلماء في العقيدة مهرة ممتازون على رغم حملة الدعاية العنيفة التي شنتها عليهم العناصر المعادية لمذهبهم من أمثال : محمد بن يتيق قاضي قرطبة ، والزبيدي النحوي ، والفقيه أبو عمر بن لوبي .

والظاهر أن هذه الحملة من جانب هؤلاء الفقهاء لم تسفر إلا عن نشاط جديد لهذا المذهب ، ففي عصر ابن حزم نجد الرعيني - السالف الذكر - يحمل لواء مذهبهم ومن ورائه أهله وذووه ، حتى لقد حملت ابنته لقب Teologa أى التالمة ، وكان من تعاليمه أنه كان يقول بالحلب للطلق ، وبمخلود العالم - ثم نجد الحكم بن منذر ابن سعيد البلوطي من عشاق مبادئ المدرسة السرية ، ومما يذكر عنه أنه كان قفياً متكلماً ، عالماً بالأصول ، بارعاً في صناعة الطب .

وليس من اليسير أن نعرف بالضبط المصير الذي آلت إليه مدرسة ابن مسرة القرطبي بعد حامل لوائها «الرعي» وخاصة بعد أن فعل المنصور فعلته بإحراق مكتبة الحكم التي كانت تضم بين أرففها الكثير من مؤلفات ابن مسرة الفيلسوف - تقرباً منه إلى الشعب - ولكن الذي لا شك فيه أن أفكاره ومبادئه قد تسربت فيها بعد إلى مناطق كثيرة وأزمان متلاحقة أو متباعدة ، فمدينة المرية التي تبلورت في شكل ثورة لطائفة الصوفية ، الذين تأثروا بتعاليم ابن مسرة نذكر منهم محمد بن عيسى الإلبيري وابن العريف الذي كان من تلامذة أبو بكر اليورقي والذي كان موطنه مدينة غرناطة ، وابن غازي وموطنه

الجزبي والذي أشعل نار الثورة ضد الرابطين . . . ومنهم ابن
العربي الذي تسربت عن طريقه البادية المسرية إلى الشرق .
ويذكر بعض المؤرخين للتراث الإسلامي من المستشرقين
الإسبان أن المتصوفين الإسلاميين لم يكونوا وحدهم هم الذين
استفادوا من مبادئ هذه المدرسة بل تعدى ذلك بشكل واضح
إلى الفلاسفة اليهود وغير اليهود الذين انتفعوا بتلك التعاليم . .
ويذكرون من اليهود Avicbron ومن غير اليهود دومنجو
جوثالث Domingo gonzalez الذي كان موطنه أرشدونة
التابعة لسيجوييا ، وروجيريو باكون ثم راموندو لوليو من
مدينة طليطلة .

وما يذكر بالحمد والثناء أن بعض المؤرخين لأصول الديانات
حتى للمسلمين قد احتفظوا في كتبهم ببعض آثار ابن مسرة ، التي
بنى عليها المستشرق الإسباني أسين بلاثيوت استنتاجاته وأبحاثه
العلمية نذكر منهم أبو محمد بن حزم القرطبي ، وسعيد الطليطلي ،
والشهرستاني ، وابن أبي أصيبعة ، والقفطي وغيرهم .

مزياب الموسيقى :

بلغ عرب الأندلس درجة رفيعة من الكمال ، في فنون العمارات

والزخرفة بمختلف أنواعها ، وكان لأساليبهم الفنية طابعا مميزا لها ، كما شغفوا بالموسيقى والغناء والرقص .

ولقد قرب الخلفاء والأمراء إليهم الفنانين ، لأسيا المغنين والموسيقيين ، وأغدقوا عليهم الأموال والعطايا فبرزت أسماء مغنين اقترنت بأثار لها في حياة قرطبة ، أمثال « منصور اليهودي » - الذي ارتفع ذكره في عهدي ، الحكم ثالث الملوك الأمويين بالأندلس ، وابنه عبدالرحمن الأوسط - و « زرياب الفارسي » - الذي وفد على الأندلس فارا من بغداد - فعلا ذكره ، واتسعت شهرته ، وكان ذا أثر اجتماعي لا ينكر في حياة الأندلس عامة وقرطبة خاصة .

وزرياب هذا فارسي الأصل ، ويسمى « أبو الحسن علي بن رافع » ، « وقد أطلق عليه لقب زرياب ، لسواد لونه ، وفصاحة لسانه ، تشبها له بطائر أسود حسن الصوت » .

لم يكن زرياب موسيقيا فحسب ، بل اشتهر كشاعر ، وأديب ملم بعلم الفلك ، وسير الملوك ، وكاجتماعي يعرف أخلاق الشعوب وطبائعها . . وكان حافظاً لكثير من الحكم والأمثال ، فصيحاً حسن الصوت ، حلو الحديث .

درس الغناء على يد إسحاق الموصلي ، ويذكر المؤرخون قصة

فراره من بغداد وظهوره في قرطبة فيقولون : طلب الخليفة
هارون الرشيد يوما من إسحاق أن يأتي له بمغنٍّ متفوق في الغناء ،
ولو لم يكن قد اشتهر بفنه ، فذكر له تلميذه زرياب ، فأمره
الرشيد بإحضاره ، فلما كلفه الرشيد رد عليه « بأحسن منطق ،
وأوجز خطاب » . ولما سأله عن معرفته بالغناء قال : نعم !
أحسن منه ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه مما
لا يحسن إلا عندك ، ولا يدخر إلا لك . فإن أذنت غنيتك
مالم تسمعه إذن قبلك ، فأمر بإحضار عود أستاذه إسحاق ، فلما
أدنى إليه وقف عن تناوله ، وقال لي « عود تحته يدي وأرهفته
أحكامي لا أرتضي غيره وهو بالباب ، فليأذن لي أمير المؤمنين
في استدعائه » فأمر بإدخاله إليه . فلما تأمله الرشيد ، وكان
شبيها بالعود الذي دفعه ، قال له : ما منعك أن تستعمل عود
أستاذك ؟ فقال : إن كان مولاي يرغب في غناء أستاذي غنيته
بعوده ، وإن كان يرغب في غنائِي فلا بد لي من عودي « فقال له :
ما أراها إلا واحدا ، فقال : صدقت يا مولاي ؟ ولا يؤدي النظر
غير ذلك ، ولكن عودي وإن كان في قدر جسم عوده ومن
جنس خشبه ، فهو يقع من وزنه في الثامن أو نحوه ، وأوتاري
من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أناقة ورخاوة وبهاء ،

ومثلها اتخذتها من مصران شبل. أسد ، ولها من قوة الصبر على
تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها ، فاستبرع الرشيد
وصفه ، وأمره بالغناء .

فلما غناه طرب طرباً شديداً ، وأوصى به إسحاق وصاية
عظيمة ، وأمره أن يعتنى به ، فتحركت عوامل الحقد والحسد
فى نفس إسحاق ، ورأى أن زرياب أضحى منافساً خطيراً له ،
ويكاد يذهب بمكاته وشهرته ، ورأى أن الأرض باتت لا تتسع
لها ، وعمّا قليل ستهبط أسهمه ، ويرتفع أسهم زرياب فى البلاط
الخليفي وهذا مالا يصبر عليه ، فقال له « عمّا قليل تسقط منزلتي
وترقى أنت فوقى ، وهذا مالا أصاحبك عليه ولو أنك ولدى ،
ولولا رعي لذمة تربيتك لما قدّمت شيئاً على أن أذهب نفسك ..
فتخير فى اثنتين لا بد لك منهما . . إما أن تذهب عنى فى الأرض
العريضة لا أسمع لك خبراً ، بعد أن تعطينى على ذلك الأيمان
الموثقة ، وأنهضك بما أردت من مال وغيره ، وإما أن تقيم على
كرهى ورغبى مستهدفاً إلى . . نخذ الآن حذرک ، والله لا أبقي
عليك ولا أدع اغتيالک ، باذلاً فى ذلك بدنى ومالى ، فاقض
قضاءك » . . .

عند ذلك اختار زرياب الفرار بنفسه ، والرحيل إلى بلاد

الأندلس ، وكتب إلى الحكم كتابات يعرب فيها عن رغبته الملحة
في أن يندمج في بلاطه . فاهتبل الحكم الفرصة ، ووجد في انضمام
زرياب إلى بلاطه كسبا عظيما للفن ، وأوفد منصور اليهودي
لاستقباله ، ودخل زرياب بلاد الأندلس تصحبه أسرته ، ولكنه
علم ب وفاة الحكم فأراد العودة إلى المغرب ، غير أن منصور
اليهودي أشار عليه بأن يقصد عبدالرحمن الأوسط الذي خلف
أباه ، والذي أراد أن يجعل من قرطبة بغداد ثانية تنافسها في كل
شئ ، فرحب به ترحيباً كبيراً ، وكتب إلى عماله أن يحسنوا
لقاءه ، ويسهلوا له طريق الوصول إلى قرطبة ، ولما وصل
أنزله منزلاً كريماً ، وبالع في الحفاوة به ورتب له راتباً سنوياً
قدر بحوالى الثلاثة آلاف درهم ، كما منحه ضيعة كبيرة قدرت
بحوالى الأربعة آلاف دينار ، زيادة على رواتب أخرى .

أحب عبدالرحمن زرياباً ، وجعله المقدم على جميع المغنين ،
وعلى منزله عنده ، وسما به ذكاًؤه وعلمه ، إلى الحد الذي جعل
الخليفة يؤاكله هو وأكابر ولده ، ويستمع إلى غنائه ، وإلى
ما يقصه من أحوال الملوك ، والتوارد المستطرفة ، وما لبث
أن ملك قلب الخليفة ، حتى أنه أمر بأن يفتح له باب خاص
يستدعيه منه متى أراد .

وكان زرياب يعرف كما تقول الرواية : عشرة آلاف أغنية ،
يزعم أن الجن علمته إياها في الليل :

ولقد أسس هذا الفنان في قرطبة مدرسة للموسيقى ذاع
صيتها ، كما بحث في طبيعة الأنغام ، وموارد الصوت البشرى بحثا
جديا ، فجعل أوتار العود خمسة بعد أن كانت أربعة ، كما اتخذ
مضرب العود من قوادم النسر بدل الخشب .

أثر زرياب في حياة قرطبة خاصة والأندلس عامة ، فعلى
الرغم من أن الفضل يرجع إليه في تعليم الجوارى الغناء ، وعلى
الرغم من أنه أصبح لفن الغناء والموسيقى على يديه مكان ملحوظ
بين الفنون في هذه البلاد ، إلا أننا نرى أنه بذل الناس في تهذيبه
وفكاهته ، وأصبحت شهرته مضرب المثل ، وكان له أثر
اجتماعي كبير في حياة الناس فقد تأثر المجتمع في قرطبة وخارجها
بأساليبه في الملبس ، والمأكل ، والعادات ، فطبع العصر بطابعه ،
وأصبح مثلاً يحتذى في ذلك .

تحكم في ابتداع الأزياء ، وحث الناس على تنوع ملابسهم
تنوعاً يتناسب مع اختلاف الفصول ، وأبطل عادة كانت سائدة
في الأندلس وهي إعفاء الشعر ، وإسداله مفروقا إلى الحاجبين
والصدغين .

ومن اداب المائدة ما سرى استعماله بين العام والخاص
من أهل الأندلس فإليه ينسب استعمال أسمطة الطعام من الجلد ،
وعنه أخذ الناس استعمال الأكواب الزجاجية ، وتفضيلها على
أكواب الفضة والذهب .

كما ابتدع بالبلاد أنواعا من الطعام لم تكن موجودة
من قبله .

وهكذا طبع زرياب العصر بطابعه وكان أثره واضحا في تطور
حياة أهل قرطبة خاصة والأندلس عامة ، وبلغ من الشهرة
درجة عظيمة ، جعلت اسمه باقيا ومقرونا بتطور الحياة الاجتماعية
في تلك البلاد .

الحاجب المنصور :

هو محمد بن عبد الله ... بن عبد الملك المغافري ، كان جده
عبد الملك من الوافدين الأوائل مع طارق بن زياد عند فتح
الأندلس ، و قبيلة مغافر التي ينتهي إليها نسبه من أصل قحطاني
يعني ، كما كانت أمه أيضاً عريية من بني تميم ، وفيه يقول
الشاعر :

تلاقت عليه من تميم ويعرب شمس تلالاً في العلا ويدور

من الحميريين الذين أكفهم

سحائب تهمة بالفدى وبحور

خرج أبو عامر إلى الدنيا في قرية « تركش » إحدى قرى
الجزيرة الخضراء جنوبي الأندلس ، وكان أبوه من العلماء
الذين يقومون بالتدريس في المسجد الجامع بقرطبة .

وارتحل أبو عامر حدثاً إلى العاصمة ، والتحق بجامعة
كطالب ينهل من منابع العلم المختلفة ، الدينية ، والعربية وغيرها ،
وأظهر تفوقاً على أقرانه ، ونبوغاً بين أترابه ، واستطاع أن
يجمع من المعرفة والثقافة ، ما أعده وصقلة وجعله يخطو في الحياة
بخطى ثابتة ذكية .

ولما شب عن الطوق ، ووصل إلى مرحلة الشباب ، اقتعد
دكاناً قريباً من قصر الخلافة يكسب فيه عيشه ، من كتابة الرسائل
لمن يشاء من المرافقين للسلطان (الحكم المستنصر) .

أخذ محمد بن عامر يتكسب قوته في هدوء ، ولم يخطر ببال
أحد أن ذلك الشاب الرقيق الحال ، الذي يجاهد من أجل عيشه ،
سيصبح يوماً ما ، سيد الأندلس ، وبطلها المقدم ، صاحب الحول
والطول فيها ، يشار إليه بالبنان ، ويكتب اسمه في صحف الخالدين .
وشاء الله تعالى ذات يوم أن تطلب السيدة « صبيح » زوجة

الخليفة من يكتب عنها ، « فعرفها بأبي عامر من كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر .

وما كاد أبو عامر يخطو داخل القصر كوظيف بسيط حتى أظهر من ضروب النشاط والهمة والذكاء ، ما ارتقى به سريعا ، وما لفت نظر « صبح » إليه ، وجعلها ترعاه ، وتثق به ، فكتب عنها ، وتمكن من قلبها بما استهوواها به من التحف والهدايا ما لم يتمكن لغيره ، فنهت عليه الحكم — الذى كان يحبها ولا يرد لها طلبا لمكاتها عنده — ، ورغبت فى تشريفه بالخدمة ، فولاه قضاء بعض المواضع فأبرز كفايته كرجل دين ، وفقه عارف بالشريعة ، وقاض ماهر فى استنباط الأحكام ، وإصابة الحكم ، ثم ترقى إلى وظيفة الإشراف على الزكاة والمواريث فى مدينة أشبيلية .

أخذ هذا الشاب الذكى الطموح، يرتقى من وظيفة إلى أخرى فى القصر والحكومة ، وينتقل من منصب إلى منصب معتمدا على مهارته ، وفطاته ، ودهائه بالتقرب إلى من يدهم مقاليد الأمر تارة ، ويضرب بعضهم ببعض تارة أخرى ، حتى جعله الحكم ناظرا للحشم أى ما يشبه منصب ناظر الخاصة بالقصر . إن الحديث عن المنصور يجب أن يكون عن فترتين ؛ الأولى

وهي التي تنتهي بموت الحاكم المستنصر سنة ست وستين وثلاثمائة
من الهجرة ، والتي كان فيها المنصور موظفاً كفتاً ، وخادماً أميناً ،
لصاحب العرش وزوجته ، ورؤسائه كالحاجب جعفر بن عثمان
المصحفي وغيره .

والفترة الثانية وهي التي تبدأ بتولية « هشام » المؤيد بن
الحكم - القاصر الذي أصبحت مقاليد أمره بيد أمه « صبح »
والحاجب المصحفي .

وهنا يبدأ القلم في تسطير صفحة جديدة من تاريخ هذا
الرجل ، ليعطينا صورة واضحة عن أنه كيف تستطيع الجسارة ،
والذكاء ، والفطنة ، والتروي ، أن تدفع بصاحبها ، والمتمتع بها ،
إلى ترقى سلم المجد سريعاً وبلوغ أعلى درجات السمو .

انتهزت بعض الإمارات المسيحية في الشمال تولية هشام الصبي
فجاشت وتحركت ، فأسرع المصحفي بتجهيز ابن أبي عامر لقتالها
فقضى عليها وشتت شمل جيوشها ، ورجع إلى قرطبة تكلله
أكاليل النصر .

وازدادت القربى بينه وبين أم هشام ، وبدأ بعد بضربته
الكبرى ووثبته العظمى التي طالما رنا إليها ، وتمنى الوصول
إلى مرتبتها .

ولكنه لم يكن بالمتسرع الذي لا يحكم أمره ، ولا بالمتهور

الذى يندفع وراء تحقيق مأربه فى غير ما ترو^و وأناة . ولكنه عرف كيف يحكم خطته ، ويصل إلى هدفه ، ويقضى على منافسيه .

وجد أن حرس القصر من الجنود الصقالبة وكانوا ثمانمائة أو يزيدون هم عقبة كؤود فى سبيل تحقيق إربه ، وصناع مؤمرات ، فأغرى بهم المصحفى حتى شتهم وأبعدهم عن القصر ، ثم استعان بغالب — صاحب مدينة سالم من مدن شمال الأندلس — فى القضاء على المصحفى ثم بآخر فى القضاء على غالب ، وهكذا نهى الكبار عن طريقه وكذلك الجنود ، ولم يبق أمامه إلا « صبح » التى « حدث بينها وبينه وحشة آل الأمر فيها إليه ، فتغلب عليها ، وأخذ الأموال التى كانت بالقصر مخزنة إلى داره ووكل بالقصر من أراد ، ونفى من أراد ، واعترف له هشام ، بالاضطلاع بكل أمور الدولة ، فخرست الألسنة » .

ثم وجد أن الأمر يتطلب وجود حامية مخصصة له ، تأتمر بأمره ، وتكون طوع بنانه ورهن إشارته ، تقف بجانبه وتدافع عنه وتحميه من فتن الحاقدين ، فكون جيشا من البرابرة (أهل المغرب) ، والمرتزقة من جنود النصارى ، وأوسع لهم فى العطاء ، وأكثر لهم فى البذل ، فصاروا عدته ، وسلاحه

البتار ، ضد أعدائه فى الداخل ، وفى غزواته فى الأندلس وغيرها .
وجأر بالمحافظة على الخلافة والعرش ، وكان بوسعه القضاء
عليها ، والاستئثار بكل شىء ، ولكنه الفطن الأريب ، الذى
عرف كيف يعطل كل سلطان لها ، دون القضاء عليها فحجر
على الخليفة ، ومنع مقابلته إلا بإذنه ، وجمع السلطة كلها
فى يده ، فلم يبق للخلافة إلا اسمها وكتابة اسم الخليفة على السكة
والطرز .

وهكذا وصل إلى مأربه ، « وقعد على سرير الملك ،
وأمر أن يحيا بتحية للوك وتسمى بالحاجب المنصور ، وفدت
الكتب والمحاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر
عقب الدعاء للخليفة » .

ترجع المنصور على أريكة الحجابة قرابة سبعة وعشرين عاما ،
جعل الجهاد فى سبيل الله شغله ، فقاد جيشه المظفر ، من بلد
إلى بلد ، ومن موقع إلى آخر ، لم تهزم له راية ، ولم تُفكَل
له قوة ، فدوخ مسيحي شمال إسبانيا ، وألقى الرعب فى نفوسهم ،
ثم مال على شمال إفريقية فوطد سلطاته فى المغرب الأقصى .

ولم تشغله حروبه المتتالية عن توطيد الأمن ، ونشر
الطمأنينة ، والعمل على الرخاء فى البلاد فنعمت الأندلس

فى عهدہ بالرشاء والرفاہیۃ ؛ ولقد صدق بعض المؤرخین
إذ یقول « لم یحدث أن ازدهر نجم الإسلام فى الأندلس
كما ازدهر فى عهد المنصور ، إذا استثنینا عهد عبد الرحمن
الناصر » .

ولقد شغف بالعلم والعلماء ، وأحب الأدب ، وشجع الشعر ،
وأغدق على أصحابها ، وأنعم على روادها وذویها بالعطايا
الجزیلة ، وزخرف البلاد فى عهدہ بطائفة من مشهورى العلماء
والأدباء والشعراء ، وكان له كل أسبوع مجلس یجتمع فیه العلماء
وغيرهم للبحث والمناظرة ، ولیس هذا بالعجیب علیه فإنه
الأدیب المحسن ، والعالم المتفنن ومما ینسب إلیه من شعر ، هذه
الآیات التى یمنى فیها نفسه بملك مصر والحجاز :

منع العین أن تذوق المناما
حبها أن ترى الصفا والمقاما
لی دیون بالشرق عند أناس
قد أحلوا بالمشرین الحراما
إن قضوها نالوا الأمانی وإلا
جعلوا دونها رقابا وهاما

عن قريب ترى خيول هشام
يلغ النيل خطوها والشاما
ومما قاله يفخر فيه بنفسه وبأهله وعشيرته ويبين ما تمتع
به من صفات الجرأة والمخاطرة التي دفعت به إلى السيادة هذه
الآيات :

رمى بنفسى هول كل عزيمة
وخاطرت والحر الكريم بخاطر
وما صاحي إلا جنان مشيع
وأسمر خطى وأيض باتر
وإني لزجاء الجيوش إلى الوغى
أسود تلاقيها أسود خوادر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة
وفاخرت حتى لم أجدمن أفاخر
وما شدت بنيانا ولكن زيادة
على ما بنى عبد الملك وعامر
رفعنا العوالى بالعوالى مثلها
وأورثناها فى القديم بغافر
ويحضرني عند الحديث عن حب المنصور للأدب ، وتقديره

لأصحابه ، ما ذكره المؤرخون من قصته مع الفتى الأديب
إذ يقولون :

« كان بقرطبة قتي قد رقت حاله في الطلب ، فتعلق بكتاب
العمل ، واختلف إلى الحزاة مدة حتى قلده بعض الأعمال ،
فاستهلك كثيرا من المال ، فلما ضم إلى الحساب أبرز عليه ثلاثة
آلاف دينار ، فرفع خبره إلى المنصور فأمر بإحضاره ، فلما مثل
بين يديه ، ولزم الإقرار بما برز عليه ، قال له : « يا فاسق
ما الذي جرأك على مال السلطان تنهيه » ، فقال : « قضاء غلب
الرأى ، وفقر أفسد الأمانة » فقال المنصور ، « والله لأجعلنك
نسكالا لغيرك » ، ثم أمر بقيده في الحديد وسجنه ، وأمر
الضابط بامتحانه والشدة عليه ، فلما قام أنشأ يقول :

أواء أواء وكم ذا أرى أكثر من تكرار أواء
مالامرى حول ولا قوة الحول والقوة لله
فقال المنصور ردّوه ، فلما ردّ قال المنصور « أتمثلت
أم قلت ؟ » قال : « لا بل قلت » ، فقال « حملوا عنه كبيله
(قيده) » فلما حلّ عنه أنشأ يقول :

أما ترى عفو أبى عامر لا بد أن تتبعه منه
كذلك الله إذا ما عفا عن عبده أدخله الجنة

قامر بإطلاقه ، وسوغه ذلك المال ، وأبرأه من التبعة فيه .
ومن الشعراء الذين ذاع ذكرهم أيام المنصور وامتاز
بالبلاغة ، وغزارة المادة ، وحضور البديهة ؛ أبو مروان
عبد الملك بن إدريس الأزدي الجزيري ، وكان كاتباً أديباً ،
ووزيراً من وزراء الدولة العامرية وما أجل قوله من قصيدة
يصف فيها مجلساً من مجالس المنصور .

للياسمين تطلع في عرشه

مثل المليك عراه زهر مطرق

ونضائد من نرجس وبنفسج

وجنى خيريّ وورد يعبق

ترنو بسحر عيونها وتكاد من

طرب إليك بلا لسان تنطق

وعلى يمينك سوسنات أطلعت

زهر الربيع فهن حسنا تشرق

فكأنما هي في اختلاف رقومها

ريات نصرك يوم بأسك تخفق

في مجلس جمع السرور لأهله

ملك إذا جمعت قناه يفرق

حازت بدولته للغارب رفعة
فغداً ليحسدها عليه الشرق

ومن قوله :

حبتك ياقر العلا المجلس
أزكى تحيتها عيون النرجس
زهر تريك بحسنها وبلونها
زهر النجوم الجاريات الكنس
ملكن أفئدة الندامى كلها
دارت بمجلسهم مدار الأكؤس
ملك الهمام العامرى محمد

للمكرمات وللهى والأنفس

وعلى الرغم من أن المنصور أصبح صاحب الكلمة النافذة ،
وصاحب السلطة المطلقة فى الدولة ، فلا منازع ولا منافس ، إلا
أنه لم يكن بالمتجبر المذموم ، ولا بالمتكبر الذى إذا قيل له
اتق الله أخذته العزة بالآثم ، ولا بالظالم الجهول الذى لا يخشى
ربه ، بل كان إذا ذكر بالله ذكر ، وإذا خوف من عقابه ازدجر ،
يحب العدل ويعين عليه ، وينفر من ظلم رعيته ، ويقسو على الظالم
حتى يأخذ للمظلوم حقه ، فنشر العدل فى عهده ألوته فى ربوع

دولته ، ونعم الناس بالطمأنينة ، فلا محاباة لظالم ولو كان من ذوى القربى والحظوة لدى القابض على السلطان والمتربع على أريكة الحكم ، ولا معونة لغاش أو محتال ، ويروى التاريخ لنا عن عدله من القصص الكثير ، غير أننا نكتفى بأن نسوق بعضها لترى أيها القارئ الكريم صدق ما نقول :

فقد كان المنصور يوماً بمجلسه إذ جاء رجل من العامة يشكو أحد وصفائه وأشار إليه ثم قال « وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت » ، فقال المنصور « أو عبد الرحمن ابن الفطيس بهذا العجز والمهانة ، وكنا نظنه أمضى من ذلك » ؟

ثم أمره أن يذكر مظلمته ، وبعد ذكرها قال المنصور « ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية » ثم نظر إلى الوصيف ، وقد وهل عقله فقال له : « ادفع الدرقة إلى فلان وانزل صاعرا ، وساو خصمك مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك » ففعل ، ومثل بين يديه ، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به . « خذ بين هذا الفاسق الظالم ، وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم ، لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره » ففعل ذلك ، ثم عاد الرجل إلى المنصور شاكرآ ، فقال له المنصور « قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك ، وبقي انتصافي أنا ممن تهاون بمنزلتى » فتناول

الوصيف بأنواع من المذلة وأبعده عن الخدمة .

ومن ذلك أيضاً قصة ما يسمى بمحمد صاحب حجامة المنصور وأمينه على نفسه ، إذ وقع منه في يوم ما حيف وجور على امرأته ، وظن أن مكاتته من المنصور تحميه من يد العدالة ، ولكن القاضي سجنه ، فاحتاجه المنصور يوماً فأخبر بأنه في السجن . فأمر بإخراجه مع رقيب من رقباء السجن يلزمه إلى أن يفرغ من عمله عنده ، ثم يرده إلى محبسه ففعل ذلك على ما رسمه ، وذهب محمد يشكو إلى المنصور ما ناله ، فقطع عليه المنصور ، وقال له « يا محمد إنه القاضي وهو في عدله ، ولو أخذني بالحق ما أطق الامتناع منه ، عد إلى محبسك ، واعترف بالحق فهو الذي يطلقك » فانكسر الحاجم ، وزالت عنه ريح العناية ، وبلغت قصته القاضي فصالحه مع زوجته .

أقبلت الدنيا على المنصور ، وامتلاأت الخزائن بالمال ، وغلبت عليه طبيعته العريية الأصيلة ، كما غلب عليه دينه الذي يأمر بالكرم والبذل ، فجاد بالكثير ، وأعطى الفقير والمحتاج ، والضعيف والمسكين ، ووقاه الله تعالى شح نفسه ، فاجتمعت حوله القلوب ولهجت بذكره السنة الناس ، وضرب على أيدي من يأكل أموال الناس بالباطل ، وكان مثلاً يحتذى

وقدوة يقتدى بها ومما يحكى عنه وفيه يمتزج الجود بالفطنة ، تلك
القصة التالية :

قصد تاجر من مدينة عدن المنصور بجوهر كثير ،
وأحجار نفيسة ، يبغي رफده ، فأخذ المنصور ما استحسنة
منها ، وانصرف التاجر متبعاشط النهر ، ولما كان اليوم
قائظا وعرقه ينصب انصباباً دعتة نفسه أن يتبرد في النهر ،
فخلع ملابسه ووضع فوقها الصرة التي بها الجواهر والنقود ،
وكانت ذات لون أحمر ، فمرت حداة فاخطفت الصرة
تحسبها لحما ، وذهبت بها صاعدة في الأفق ، والتاجر يتابعها
بنظره وقد قامت قيامته ، وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيله ،
وتغلغلت الحداة في البساتين وغابت عن عينيه ، وأسرَّ الحزن في
نفسه ، ولحقته لأجل ذلك علة اضطرب فيها ، وحضر وقت
الدفع إلى التجار ، واستبان للمنصور ما بالرجل من الكآبة
والمهانة وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة ، فسأله
المنصور عن شأنه فأعلمه بقصته . فقال له : « هلا أتيت إلينا
بمحدثان وقوع الأمر فكنا نستظهر على الحيلة . فهل هُديت
إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها؟ » قال : مر شرقاً على سمت هذا
الجبيل الذي يلي قصر ك ، فدعا المنصور شرطيه الخاص به : فقال

له : « جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة » فضى وجاء بهم فامر بالبحث هم من تغيرت حاله سريعاً من إقلال إلى إكثار ، ونعمة دون تدريج ، فتناظروا في ذلك ثم قالوا : « يا مولانا ! ما نعلم إلاّ رجل من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم ، ويتناولون السبق بأقدامهم عجزاً عن شراء دابة ، فابتاع اليوم دابة ، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة » فأمر بإحضاره من الغد وأمر التاجر بالغدو إلى الباب ، فحضر الرجل بعينه بين المنصور . فاستدناه والتاجر حاضر وقال له : « سبب ضاع منا وسقط إليك ، ما فعلت به » قال « هو ذا يا مولاي ، وضرب يده الى حجرة سراويله ، وأخرج الصرة ، فصاح التاجر طرباء ، وكاد يطير فرحاً . فقال المنصور للرجل : صف لي حديثها ، فقال « بينا أنا أعمل في جناني تحت نخلة اذ سقطت أمامي ، فأخذتها وراقني منظرها ، فقلت إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار ، فاجتزت بها ، ودعتني فاقتى إلى أخذ عشرة مثاقيل عيوناً (أي من الذهب المضروب) كانت معها مصرورة ، وقلت أقل ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها ، فأعجب المنصور ما كان منه ، وقال للتاجر « خذ صرتك وانظرها ، واصدقني عن عددها » ففعل وقال : « وحق رأسك يا مولاي

ما ضاع منا شيء سوى الدنانير التي ذكرها ، وهبتها له » فقال له المنصور : « نحن أولى بذلك منك ، ولا تنقص عليك فرحك ، ولولا جمعه بين الإسرار والإقرار لكان ثوابه موفوراً عليه » ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً عن دنانيره ، وللجنائني بعشرة دنانير ثواباً لتأنيه عن فساد ما وقع يده وقال : « لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث لأوسعناه جزاء » . وأخذ التاجر بالثناء على المنصور وقد عاوده نشاطه وقال « والله لأبئن في الأقطار عظيم ملكك ، ولأبينن أنك تملك طير أعمالك كما تملك أنفسها ، فلا تعتصم منك ولا تمتنع ، ولا تؤذ جارك ، فضحك المنصور وقال : « اقصد في قولك يغفر الله لك » وعجب الناس من تلفظ المنصور في أمره ، وحيلته في تفريج كربته .

ولقد كره أكل أموال الناس بالباطل ، وأن تستغل سذاجة البسطاء فيمظلموا في حقوقهم ، عاملاً بقول الله تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وإن في القصة التالية التي يقصها علينا المؤرخون لتبيان لما ذكرت .

حينما أراد المنصور إقامة قنطرة أخرى على نهر قرطبة ؛ كانت هنالك قطعة أرض لشيخ من العامة ، لا بد أن تستغل

وتدخل ضمن البناء ، « فأمر المنصور أمناء بإرضائه فيها ،
فحضر الشيخ عندهم ، فساوموه بالقطعة ، وعرفوه وجه الحاجة
إليها ، وأن المنصور لا يريد إنصافه فيها ، فرماهم الشيخ بالغرض
الآقصى عنده في ما ظنه أنها لا تخرج عنه بأقل من عشرة دنانير
ذهبا ، كانت عنده أقصى الأمانة ، وشرطها صحاحا ، فاعتتم
الأمناء غفلته ، ونقدوه الثمن ، وأشهدوا عليه ، ثم أخبروا
المنصور بخبره ، فضحك من جهالته ، وأنف من غيبته ، وأمر
أن يعطى عشرة أمثال ما سأل ، وتدفع له صحاحا كما قال ، فقبض
الشيخ مائة دينار ذهبا ، فكاد أن يخرج من عقله ، وأن يحجن
عند قبضها من الفرح ، وجاء محتفلا في شكر المنصور ، وصارت
قصته خبرا سارا .

ولقد ضرب المنصور بقسط وافر في تشجيع العمران ،
وخاصة ما يعود منه بالخير على رعيته ، فوسع المسجد الجامع
بقرطبة كما سبق ذكره ، وأقام على نهر قرطبة قنطرة أخرى غير
القديمة أنفق عليها أربعين ومائة ألف من الدنانير انتهى منها
سنة تسع وسبعين وثلاثمائة من الهجرة ، وأقام قنطرة ثانية على
نهر « استجه » كما أنشأ ضاحية الزاهرة التي سبق الحديث عنها .
هكذا سطر المنصور لنفسه صفحات في سجل الخالدين ،

وبدا كمصلح عظيم بين المصلحين العاملين ، ونقش اسمه في التاريخ بين المجاهدين لنصرة الدين وإعلاء كلمة الله تعالى ، وظهر كسياسي قدير ، خطب ودّه الملوك وخشى بأسه أصحاب السلطان ، والتفت حوله رعيته تحفه بقلوبها ، وتسند به بحبها ، فاستحق ما قاله بعض المؤرخين الأجانب من أنه « كان بسمارك القرن العاشر الميلادي » .

لم يكن يشينه إلا حكمه المطلق ، واجترأؤه على منصب الخلافة ، ووسائله التي استغلها في القضاء على بعض خصومه .
ولقد « اتسم المنصور بصحة باطنه ، واعترافه بذنبه ، وخو من ربه ، وكثرة جهاده ، ولم يزل متزها عن كل ما يفتن الملوك سوى الحمر ، لكنه أقلع عنها قبل موته بسنتين » .
ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن المنصور كان دائماً يحمل مصحفاً - قد خطه بيده - في أسفاره وغزواته يدرس منه ويشرك به ، وفي القصة التالية نلمح إيماناً عميقاً وخوفاً من الله تعالى ، وتروى كتب التاريخ أنه كان هناك سجين من خدم المنصور في جملة من طال سجنه وكان شديد الحقد عليه ، فوقع على اسمه بأن لاسبيل إلى إطلاقه حتى يهلك ، وعرف الرجل بتوقيعه فاهتم واغتم ، وأجهد نفسه في الدعاء والمناجاة ، فأرق

المنصور إثر ذلك ، واستدعى النوم فلم يقدر عليه ، وكان يأتيه عند تنويمه آت كريبه الشخص ، عنيف الأخذ ، يأمره بإطلاق الرجل ويتوعده على حبسه ، فاستدفع شأنه مرارا ، إلى أن علم أنه نذير من ربه ، فانتقاد لأمره ، ودعا بالدواة في مرقده فكتب بإطلاقه وقال في كتابه : « هذا طليق الله على رغم أنف أبي عامر » . ولقد تمنى المنصور أن يموت في ساحة الوغى مجاهدا في سبيل الله . . . راجياً رحمة ربه ومغفرته وبلغ من قوة رجائه « أنه اعتنى بجميع ماعلق بوجهه من الغبار في غزواته ، ومواطن جهاده ، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازلهم ، حتى اجتمع له منه صرة ضخمة ، عهد يجعله في خنوطه ، وكان يحملها حيث سار مع أكفانه توقعاً لحلول منيته ، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسيه من الصنيعة الموزونة عن أيه وغزل بناته » .

وشاء الله عز سلطانه أن يحقق له رغبته فمات سنة أربع وتسعين وثلاثمائة من الهجرة ، نتيجة لجراح أصيب بها في غزواته الأخيرة من غزواته ، التي بلغت نيفا وخمسين غزوة ، وحمل على سريريه ، ودفن في مدينة سالم بشمالى الأندلس ، ودفن معه صرة الغبار كما أوصى بذلك ، ونقش على قبره :

آثاره تنبيك عن أخباره
حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله
أبدأ ولا يحصى الثغور سواء

ابن هزم :

من بين الشخصيات المرموقة في عالم الثقافة الإسلامية ودنيا
العلم ، والتي غدت الفكر الإنساني بمعارفها وسعة اطلاعها ،
شخصية الفقيه على بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الأندلسي .
ويكنى أبا محمد ... وأبوه هو الوزير أبو عمر أحمد بن سعيد
الذي وزر للحاجب للنصور بن أبي عامر .

وكما امتاز هذا الفقيه بمحمة الذهن ، والذكاء المفرط ، وسرعه
الخاطر ، امتاز بكثرة الاطلاع وسعة العلم بالكتاب والسنة ،
والمذاهب والملل والنحل إلا أنه قد اتصف بسوء الاعتقاد
والوقوع في السلف ، مما أثار عليه الانتقاد وألب عليه
الخاصة والعامة .

كان أبو محمد في مبدأ أمره شافعي المذهب . ولكنه مالبت
أن هجر هذا المذهب وانتحل مذهب داود بن علي الظاهري وتبناه

- كما سبقت الإشارة إليه - وترعرع مذهب الظاهرية في الغرب على يد هذا الفقيه وصار له أتباع وتلاميذ . - ومن خصائص أتباع المذهب الظاهري أنهم يأخذون بظاهر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، ثم يشكرون القياس الشرعي - وهو أساس من الأسس التي بنى عليها الفقهاء الفقه وأصول الفقه - ويزعمون أن علة الأصل هي علة الفرع .

ودافع ابن حزم عن مذهب الظاهرية في غير هوادة ولا شفقة ، وكان كما يقول ابن حيان « يصك معارضه صك الجنادل ، وينشقه مبتلعه انشقاق الخردل ، فنفّر عنه القلوب ، وتوقع به الندوب ، حتى استهدف إلى فقهاء عصره ، فمالوا إلى بغضه ، ورد قوله ، وأجمعوا على تضليله والتشنيع عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنه ، ونهوا أعوانهم من الدنو إليه والأخذ عنه ، وطفق الملوك يقصونه عن قربهم ويسيرونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به منقطع أثره بتربة بلده من بادية لبلة » .

يحكى أنه ذات مرة تناظر فيها أبو محمد بن حزم والقاضي أبو الوليد الباجي المالكي ، فقال الباجي : لقد طلبت العلم وأنا أسهر في مشكاة من الزيت وطلبتك أنت وأنت قادر عليه معان له .

فرد بن حزم : لقد طلبت العلم كما تعلم من حالي ولكنك طلبته لتصير في مثل مالي .

والظاهر أن نشأة ابن حزم المترفة الناعمة البعيدة عن شظف العيش وقسوة الحياة هي التي أذكت فيه هذا الخلق المذموم - وثمة شيء آخر أثر في شخصية ابن حزم العالم هذا الأثر السيء وحملت القريب والبعيد على بغضه والعالم والجاهل على كراهيته والبعد عنه ، وأثرت في سيكولوجيته هذا التأثير المشين ، وقد علل العلامة طاهر الجزائري - رحمه الله - تعليلاً نفسياً إذ يقول : « وقد علم من وقف على كثير من مؤلفات ابن حزم أنه يجن في أكثر المواضع إلى مخالفة الجمهور - وهو في أكثر ما خالفه فيه أقرب إلى الخطأ منه إلى الصواب - ثم استطرد قائلاً : ولعل ذلك نشأ عما أشار إليه (ابن حزم نفسه) في كتابه - مداواة النفوس حيث قال : ولقد أصابني علة شديدة ولدت عنسي ربوا في الطحال شديداً ، فولد ذلك على من العجز وضيق الخلق وقلة الصبر والنزق أمراً حاسبت نفسي فيه ، فأنكرت تبدل خلقي واشتد عجبني من مفارقتي لطبعي »

ومع هذه الصفات فقد كان أمة وحده في عالم التأليف . . . فآلف في الفقه والأصول والمنطق والفلسفة ، ووجه عناية خاصة

إلى دراسة الديانات المختلفة والنحل المتباينة وقارن بعضها ببعض ..
ومن مؤلفاته الكثيرة : الفصل بين أهل الأهواء والنحل
والصادع والرادع على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين
ومن كتبه أيضاً كتاب الجهرة في أنساب العرب وكتاب طوق
الحمامة . وقد قام أستاذ المستشرقين الإسباني آسين بلاثيوس
بدراسة مستفيضة عن كتاب الفصل وترجمه إلى اللغة الإسبانية ..
كما قام السنيور غارثياغومست بنفس الدراسة عن كتاب طوق
الحمامة وترجم النص العربي أيضاً إلى اللغة الإسبانية .

هذا . ويعلق الإمام الغزالي على مؤلف لأبي محمد بقوله :
« وجدت في أسماء الله تعالى كتاباً لأبي محمد بن حزم يدل على
عظم حفظه وسيلان ذهنه » .

بينه وبين ابن عمه :

حدث نزاع بينه وبين ابن عمه أبي المغيرة بن حزم الوزير
الكاتب وبعث الوزير إليه برسالة فأجاب أبو محمد بقوله : سمعت
وأطعت لقول الله تعالى « وأعرض عن الجاهلين » ، وأسأمت وأنفدت
لقول نبيه عليه الصلاة والسلام : « صل من قطعك واعف عمن

ظلمك . ورضيت بقول الحكماء « كفاك انتصارا ممن تعرض
لأذاك إعراضك عنه » . وأقول :

تتبع سوى امرأ يبتغي
سبابك إن هواك السباب
فإني أجيت طلاب السفاه
وتزهدت عرضي عما يعاب
وأقول :

كفاني بذكر الناس لي وما ترى
وما لك منهم يابن همي ذاكر
عدوى وأشياعي كثير كذاك من
غدا وهو نفاع المساعي وضائر
وإني وإن آذيتني وعققتني
لمحتمل ما جاء منك صابر
فوقع له أبو المغيرة على ظهر رقعة قائلا : « قرأت هذه
الرقعة العاقة فحين استوعبتها أنشدتني :

نحنح زيد وسعل لما رأى وقع الأسل
فاردت قطعها ، وترك المراجعة عنها ، فقالت لي نفسي قد
عرفت مكانها : بالله لا قطعها إلا يده ، فأثبت على ظهرها
ما يكون سببا إلى صونها فقلت :

فعلقت ولم تدر كيف الجواب
وأخطأت حتى أتاك الصواب
وأجريت وحسدك في حلبة
نأت عنك فيها الجياد العراب
وبت من الجهل مستصحباً
بغير يرى فأتتك الذئاب
فكيف تبييت عقي الظلوم
إذا ما انقضت بالحميس العقاب
لعمرى مالى يراع تنم
ولا شيمة يوم مجد تعاب
أنيل المنى والضما سحق
وأعطى الرضا والعوالى غضاب

ومن طريف ما يحكى عن الوزير الكاتب أبى المغيرة قال :
نادمت يوماً المنصور بن أبى عامر فى منبة السرور بالزاهرة
ذات الحسن النضير ، وهى جامعة بين روضة وغدير ، فلما
تضمنخ النهار بزعفران العشى ، وأسبل الليل جنحه وتقلد السماء
رحمه أو قدنا مصايح الراح ، واشتملنا ملاء الارتياح وللدجن
فوقنارواق مضروب فغنتنا جارية تسمى «أنس القلوب» وقالت:

قدم الليل عند سير النهار
 وبدأ البدر مثل نصف سوار
 فكان النهار صفحة خد
 وكان الظلام خط عذار
 وكان الكؤوس جامد ماء
 وكان المدام ذائب نار
 نظري قد جفى على ذنوبا
 كيف مما جنته عيني اعتذاري ؟
 يالقومي تعجبوا من غزال
 جائر في محبتي وهو جاري
 ليت لو كان لي إليه سبيل
 فأقضى من حبه أو طاري
 قال : فلما أ كملت الفناء ، أحسست بالمعنى فقلت :
 كيف كيف الوصول للأقار
 بين ممر القنا وبيض الشفار
 لو علمنا بأن حبك حق
 لطلبنا الحياة فيك بشار

وإذا ما الكرام هموا بشيء

خاطروا بالنفوس في الأخطار

قال فعند ذلك بادر المنصور لحسامه ، وغلظ في كلامه ،
وقال لها : قولى وأصدقى إلى من تشيرين بهذه الآيات ، وإلى من
هذ الشوق والحنين ؟ فقالت الجارية إن كان الكذب أنجى ،
فالصدق أولى وأحرى ، والله ما كانت إلا نظرة ، ولدت
في القلب فكرة ، فتكلم الحب على لسانى ، وبرح الشوق بكتمانى ،
والعفو مضمون لديك عند المقدرة ، والصفح معلوم منك عند
المعذرة ، ثم بكيت ، فكأن دمعها قد تناثر عن عقد ، أو طل
تساقط من ورد ، ثم أنشدت :

أذنبت ذنبا عظيما فكيف منه اعتذارى

والله ما قدر هذا ولم يكن باختيارى

والعفو أحسن شيء يكون عند اقتدارى

قال : فعند ذلك صرف المنصور وجه الغضب إلى . وسل
سيف السخط على ، فقلت : أيدك الله ، إنما كانت هفوة جرها
الفكر ، وصبوة أيدها النظر ، وليس للمرء إلا ما قدر له
لا ما أمله واختاره ، فأطرق المنصور قليلا ، ثم عفا وصفح ،
ووهب لى الجارية ، وانصرفت بها إلى منزلى .

شعر ابن حزم .

قرض ابن حزم الشعر وطرق بابه ، وهام به في أدوية
الشعراء ولكنه لم يشتهر بشعره كشاعر ولم ينعت به كغيره من
الشعراء الذين غلبت عليهم صناعته ولكنه عرف بالفقه
والأصول والمنطق والفلسفة والعلوم العقلية التي تتصل بالبراهين
ويغلب عليها طابع الجدل . . ومن شعره الذي يخاطب به قاضي
الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن بشير يفاخر فيه بنفسه ويندب
على طريقته حظه للمفقود في وطنه . . ويتشوف أرض العراق
فيقول :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة
ولكن عبي أن مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع
لجد على ماضع من ذكرى النهب
ولى نحو آفاق العراق صباية
ولاغرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلى بينهم
فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاجز
وأطلب ماعنه تجيء به الكتب

هنالك يدري أن للعبد قصة
 وأن كساد العلم آفاته الغرب
 فيعجبا من غاب عنهم تشوقوا
 له ، ودنو المرء من دارهم ذنب
 وإن مكانا ضاق عني لضيق
 على أنه فيح مهامه سهب
 وإن رجلا ضيعوني لضيع
 وإن زمانا لم أنل خصبه جذب
 ولما ثار عليه الفقهاء والعامّة في زمانه لمخالفته مذهب الجماعة
 السائد في أرضهم وديارهم وانتحل هذا المذهب الغريب الدخيل
 عليهم من جهة ولطعنه في علماء عصره من جهة أخرى ، وجنوحه
 في أكثر الموضع إلى مخالفة الجمهور وكان في أكثر ما خالفهم
 فيه أقرب إلى الخطأ منه إلى الصواب .. مما ترتب عليه إحراق
 كتبه وإبادتها .. فعز عليه صنيغهم فأنشأ يقول معزيا نفسه
 بهذه الآيات :

دعوني من إحراق رق وكاغد
 وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى
تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبي
وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى

ولادة بنت المستكفى :

هى فرع من فروع الدوحة المالكة ، وغصن من أغصان
البيت الأموى فأبوها هو الخليفة محمد الثالث الملقب بالمستكفى ..
ولما توفى والدها تافت نفسها إلى الانطلاق بعيدا عن الحياة
الروتينية الرتيبة ، فهجرت بيت الأسرة الذى نبتت بين
أحضانها ، وترعرعت بين جنباته وأزهاره ، وراحت تبحث عن
حياة اجتماعية صاخبة تتلاثم مع ميولها الأدبية ومشاعرها الفنية ..
ولم يعيها البحث ولم يطل بها التنقيب فأمامها طائفة الأدباء
والشعراء والكتاب وأرباب اللسان والقلم وفيهم من الصفات
ما يلائم مزاجها وينسجم مع طبيعتها .

وكانت ولادة تتمتع بكثير من الصفات المحببة إلى جانب أدبها
وشعرها ، فجعلها الباهر ، وذكائها النادر ، وابتساماتها المشرقة ،
وإجادتها فن المقابلة وإدارة الحديث مع سرعة الحاطر ولباقة

فى التصرف ، وقوة الشخصية كل هذه الصفات قد خلقت منها
المرأة الأولى فى المجتمع القرطبي نشرت على الناس أنفاسها
وعطرها ، وجعلت من بيتها كعبة القصاد يؤمه كبراء الدولة
ورواد الثقافة وعشاق الأدب ، وجعلت من ساحات قصرها
قامات يتنافس فيها الكتاب ويتناظر العلماء ويتبارى الشعراء .

ولقد غزا الحب قلب ولادة الشاعرة الأدبية كما يغزو
قلوب جميع العذارى .. وكان هواها مع شاعر الحب ابن زيدون
الذى ملأ شعره بذكرها وعطره بأنفاسها ، ولم تستطع هى
الأخرى أن تملك زمام قلبها ولا أن تتصرف فى عواطفها فبادلته
حبا بحب وهياما بهيام .

وتكفلت الأيام بإفشاء سرها ، وذيوع مكنون أمرها ،
وعرف القاصى والدانى ما كان بينهما بعد أن ظل الحب فترة
يكتنفهما ويرفرف بالسعادة عليهما .

ولم تمض فترة طويلة على هذا الحب العارم حتى طرق قلب الشاعر
طارق واحتل هذا الطارق من قلبه مكانا رحيبا ... ولم يكن
هذا المحتل الغاصب سوى حب جديد لفتاة ممراء كانت تعمل
كوصيفة لولادة نفسها .

ولما علم ذلك إليها - ولادة - تغير قلبها ، وراحت تقصيه

عن طريقها حتى كرهت اللقاء به أو الحديث عنه .. وتوالت
الإحزن والكوارث على الشاعر واتهمه الوزير الكاتب
أبو محمد بن عبدون بتهمة خطيرة ألزمته سجن قرطبة
يرسف في قيوده وأغلاله .. ويقول الفتح بن خاقان بعد كلام ،
ماصورته « ولما عضته أنياب الاعتقال ، ورضته تلك النُوبُ
الثقال ، وعُوض بمخشاة العيش من الالين ، وكان قسوة خَطْبُ
لا يلين ، وتذكر عهد عيشه الرقيق ، ومراحه بين الرصافة
والعتيق ، وحن إلى سعد زرت عليه جيوبه ، واستهدى نسيم عيش
طاب له هبوبه . وتأسى بمن باتت له النوائب بمِرصاد ، ورمته
بسهام ذات إقصاء فقال :

المهوى في طلوع تلك النجوم
والننى في هبوب ذاك النسيم
سرنا عيشنا الرقيق الحواشى
لو يدوم السرور للمستديم
وطر ما انقضى إلى أن تقضى
زمن ما ذمامه بالذميم
أيها المؤذنى بظلم الليالى
ليس يومى بواحد من ظلوم

ما ترى البدر إن تأملت والشمس
سهما يكسفان دون النجوم
وهو الدهر ليس ينفك ينحو
بالمصاب العظيم نحو العظيم
ولما اشتدت عليه وطأة السجن أحس بفداحة صنعه ، وقلة
وفائه لحبيته فبعث إلى الوزير ابن جهور وابنه وكثير من الأصدقاء
يطلب منهم المعاونة على فك أسره وقيده .. ولما يئس من المعاونة
بعث إلى ولادة ليقم لها البراهين على عهده ووفائه ، ويذكر لها
شهوده وأرقه في قصيدة طويلة منها :

ما جال بعدك لحظي في سنى القمر
إلا ذكرتك ذكر العين بالآثر
ولا استطلت ذمّاء الليل من أسف
إلا على ليلة سُرّت مع القِصير
في نشوة من شباب الوصل موهمة
أن لا مسافة بين الوهن والسحر
يأليت ذاك السَّوادُ الجَوْنُ متَّصلٌ
قد استعار سواد القلب والبصير
يا للرزايا لقد شافهت منهلها
نغمرا ، فما أشرب المكروه بالغمر

لا يهنا الشامت المرتاح خاظره
 أننى مُعَنَّى الأمانى ضائع الخطر
 هل الرياح بنجم الأرض عاصفة
 أم الكسوف لغير الشمس والقمر
 إن طال فى السجن إيداعى فلا عجب
 قد يودع الجفن حد الصارم الذكر
 وإن يُثَبِّط أبا الحزم الرضا قُدر
 على كشف ضررى فلا عتب على القدر
 من لم أزل من تَأَنِّيهِ على ثقة
 ولم آبت من تَجَنُّبِهِ على حذر
 ولا بن زيدون قصائد أخرى فى الغزل والاستعطاف ، ومن
 هذه القصائد :

يا مستخفا بما شقّيه ومستغشا لنا صحيه
 ومن أطاع الوشاة فينا حتى أطعنا السُّلُوَ فيه
 الحمد لله إذ أراى تكذيب ما كنت تدعيه
 من قبل أن يهزم التسلى ويغلب الشوق ما يليه
 ومن أحسن وأرق قول ابن زيدون المذكور فى قصيدته
 النونية الشهيرة فى شكاته لحبيته قوله :

غَصَّ العدا من تساقينا الهوى فدعوا

بأن نَغَصَّ فَقَالَ الدهر أَمِينَا

ويقول المقرئ في كتابه « نفح الطيب » ومن أغرب ما وقفت عليه موشحة لابن الوكيل دخل فيها على أعجاز نونية ابن زيدون ، وهذه هي :

غدا منادينَا مُحَكَّمَا فِينَا
يقضى علينا الأسي لولا تناسلِينَا

* * *

بحر الهوى يغرق من فيه جُهدَه هام
وناره تحرق من همٍّ أوقد هام
وربما يقلق فتى عليه نام
قد غير الأجسام وصير الأيام
سودا كانت بكم بيضا ليالِينَا

* * *

يا جيرة بَأَنْتِ عن مُغْرَمٍ صَبَّ

لعهده خانت من غير ما ذنب
ما هكذا كانت عوائد العرب
لا تحسبوا البعدا يغير العهدا
إذ طالما غير النأى المحيينا

* * *

يا نازلا بالبان بالشفع والوتر
والنحل والفرقان والليل إذا يسرى
وسورة الرحمن والنحل والحجر
هل حلّ في الأديان أن يُقتل الظمآن
من كان صرف الهوى والود يسقيننا

* * *

يا سائل القطر عرج على الوادى
من ساكنى بذر وقف بهم نادى
عسى ضبا تسرى لمغرم صادى
إن شئت تحيينا بلغ تحييننا
من لو على البعد حيا كان يحيينا

وافت لنا أيام كأنها أعوام
وكان لي أعوام كأنها أيام
تمر كالأحلام بالوصل لي لو دام
والكأس مترعة حُتَّ مشعشة

فينا السَّمُولُ وَغَنَّا مُغَنِّينَا


ويلحق الأستاذ غرثيه غومث على قصيدة ابن زيدون
النونية بقوله .. إنها أروع قصيدة جادت بها قريحة شاعر
من شعراء المسلمين في إسبانيا ، ثم يضيف : وهي من روائع
الأدب العربي العالمي .. والواقع أن القصيدة تمتاز بريقها وسلاستها
وجمال موسيقاها ولا يزال بعض الشعراء المحدثين يعارضونها
وينسجون على منوالها .. ومن هؤلاء قصيدة لشوقي
التي يقول فيها :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا

نأسى لواديك أم نشجى لوادينا

ومن هذا كله يتبين للقارئ مقدار تأثير وروعة شعر
ابن زيدون في الشعراء الذين عاصروه وآتوا بعده .. وربما
يرجع الفضل في إذكاء جذوة الشعر في نفسه إلى ولادة .

ضنام

فليس من المستطاع الإلمام في هذا الكتيب بجميع  رجالات الفكر وأقطابه ومن ازدهرت بهم قرطبة عاصمة الأندلس في شتى عصورها ، من الأدباء ، والفقههاء ، والمغنين ، والمتصوفة ، والفلاسفة ، والشعراء - الذين نظموا القصيدة الكلاسيكية أو القصيدة المتطورة التي عرفت باسم « الموشحة » ثم « الزجل » ... والناظر في كتب التواريخ التي أرخت للأندلس عامة يجد حشدا هائلا من هؤلاء ، فإنه ما كـ يأتي القرن الرابع الهجري حتى برز إلى أفق الجوقرط والأندلسي معا جملة من الشعراء الذين نظموا الفصيح من الشعر ونذكر منهم ، ابن هانيء الألبيري ، وابن عبد ربّه ، وابن فرج الجياني وأحمد بن عبد الملك بن شهيد الذي لقب بندي الوزارتين في عهد الناصر ، امتثالا باسم صاعد بن مخلد - وزير بني العباس في بغداد ، وكان نبوغه في القرن الخامس ، واشتهر برسالة « التوايع والزوايع » وهي على نسق « رسالة الغفران » لأبي العلاء المعري .

ولما سقطت الخلافة الأموية ، وانقسمت الأندلس إلى ما أسماه

المؤرخون بملوك الطوائف برغم الوهن السياسى الذى أصاب
الدولة سياسيا فإن دولة الشعر والشعراء ، قد أخذت سبيلها إلى
النمو والازدهار ، وصار الشعراء فى الأندلس يرون أنهم ليسوا
باقل من إخوانهم شعراء المشرق ، وبرز فى كل دويلة من هذه
الدويلات شعراؤها الذين يختلفون بها ويشيدون بآثرها ، فثلا
كان من شعراء المعتمد بن عباد بأشبيلية ، ابن اللبابة ، وابن
عمار ، وعبد الجليل بن وهبون . ونجد من شعراء المعتصم ابن
صباح صاحب « المرية » ، وابن الحداد ، وأبو الوليد النحلى .
ومن شعراء المتوكل ، صاحب « بطليوس » ، ابن عبدون .
ولما تغلب المرابطون واحتلوا دولة الأندلس ، تميز هذا
العصر بالزجل ، وظهر فيه أبو بكر ابن قزمان الذى يعرف
بإمام الزجالين ، ولكن صناعة الزجل التى صادفت سوقا نافقة
بإقبال الكثير عليها من الشعراء ؛ إلا أن هذا لا يعنى انقراض
الشعر الفصيح ، فهذا ابن خفاجة الأندلسى الذى اشتهر بوصف
الطبيعة ، وابن الزقاق الذى اشتهر بالتشبيهات ، وفى عصور
يذكر ابن الخطيب ، ثم تلميذه ابن زمرك الذى لا يزال شعره
يزين جدران قصر الحمراء .

ومن غير الشعراء نجد المتصوفة الذين بلغوا من الشهرة

في العالم الإسلامي شأوا بعيد المدى ، واتصلوا بأوروبا ، نذكر
منهم ، محي الدين بن عربي الحائمي المولود في سنة ٦٥٠ هـ بمدينة
« مرسية » ويعتبر بمجداة من أكبر علماء الصوفية ، ومن ألقابه
الذي كان يلقب بها : الفَوْتُ وَأَحْيَانَا الشَّيْخ الْكَبِير... الخ ومن
مصنفاته القيمة « الفتوحات للملكية » « وفصوص الحكم » وقدرى
- رحمه الله - بالكفر والإلحاد من المسلمين ، أما في الغرب
فقد نال حظوة عظيمة فتعرف عليه داتى وتأثر به .. ومنهم
أبو محمد بن الحق بن سبعين من أهل مرسية أيضا وكانت
ولادته سنة ٦١٤ هـ ولم يكن حظا من تهمة الإلحاد والكفر
بأقل من سلفه ابن العربي وابن مسرة وغيرها . ووصلت
شهرته إلى العالم المسيحي ، ويتضح ذلك جليا ، حينما أراد
فردريك الثاني صاحب صقلية استيضاح بعض المسائل المتعلقة
بالفلسفة ، لم يجد من يهديه إلى الصواب في عواصم العالم الإسلامي
سواء في مصر أو في الشام أو في غيرها ، ولكنه انتدب لذلك
ابن سبعين وكان من نتيجة ذلك ما يعرف « بالمسائل الصقلية
التي إن دلت على شيء فإنما تدل على تبخره في العلوم الفلسفية .
وهناك الكثير من علماء التاريخ والفقه وغيرها الذين
لو ذهبنا في استقصائهم لخرجنا عما التزمنا في هذا الكتاب ،

وإنما هي قطرات من هذا الفيض الزاخر الذين احتشدت بهم
دولة الإسلام في الأندلس التي قادتها قرطبة العاصمة إلى هذه
الثروة الضخمة من العلوم ، والمعارف الإنسانية ، فأنارت الطريق
أمام أوروبا وغيرها .

نعم هذه هي قرطبة وهذا هو بعض دورها في تاريخ الفكر
الإنساني ، ألمعنا إليه في هذه الصفحات وهي من غير شك لا يزال
لها في قلب كل مسلم ذكرى تقصر عنها الذكريات ، فهي تحكي
عاصمة أمة ذهبت ، ودولة انقرضت ، وجنات ضيعت فهي كما
قالوا بحق : الفردوس المفقود .

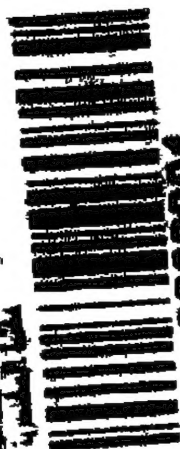


مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٦/٣٥٢٣

ISBN ٩٧٧ - ٠٢ - ٠٩٩٩ - ١

Bibliotheca Alexandrina



0239801

To: www.al-mostafa.com